

المقامة القريضية

حدثنا عيسى بن هشام قال: طرحتني التوى مطارحها حتى إذا وطئت جرجان الأقصى. فاستظهرت على الأيام بضياح أجلت فيها يد العمارة، وأمواًل وفتتها على التجارة، وحانوت جعلته مئابة، ورفقة اتخذتها صحابة، وجعلت للدار، حاشيتي النهار، وللحانوت بينهما، فجلستنا يوماً نتذكر القريض وأهله، وتلقاها شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأته يفهم، ويسكت وكأته لا يعلم حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجرّ الجدل فينا ذيله، قال: قد أصبتم غديقه، ووافيتم جديله، ولو شئت للفظت وأفضت، ولو قلت لأصدرت وأوردت، ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصم، وينزل العصم، قلت: يا فاضل أذن فقد منيت، وهات فقد أثيت، فدنا وقال: سلوني أجيبكم، واسمعوا أعجبكم. قلنا: ما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتنى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاها، ولم يقل الشعر كاسياً. ولم يجد القول راغباً، ففضل من تفتق لليلة لسانه، وانتجع للرغبة بنائه، قلنا: فما تقول في النابغة؟ قال: ينلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائباً، قلنا: فما تقول في زهير؟ قال يذيب الشعر، والشعر يذيه، ويدعو القول والسحر يجيبه، قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكثر القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دقائه ولم تفتح أعلاق خزائنه، قلنا: فما تقول في جرير والفرزدق؟ أيهما أسبق؟ فقال: جرير أرق شعراً، وأغزر غزراً والفرزدق أمتن صخراً، وأكثر فخراً وجريراً أوجع هجواً، وأشرف يوماً والفرزدق أكثر روماً، وأكرم قوماً، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا تلب أردى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا افتخر أجرى، وإذا احتقر أزرى، وإذا وصف أوفى، قلنا: فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر من المعاني خطأ، والمتأخرون ألطف صنعا، وأرق نسجا، قلنا: فلو أرئت من أشعارك، ورويت لنا من أخبارك، قال: خدھما في معرض واحد، وقال:

أما تروني أتعشى طمراً ... ممتطياً في الضرّ أمراً مرّاً
مضطرباً على الليالي غمراً ... ملاقياً منها صرُوفاً حمراً
أقصى أمانى طلوع الشعري ... فقد غنينا بالأمانى دهرّاً
وكان هذا الحرُّ أعلى قلراً ... وماء هذا الوجه أعلى سِعراً
ضربت للسرِّ قباباً خضراً ... في دارِ داراً وإوانِ كسرى
فانقلب الدهرُ لبطن ظهراً ... وعادَ عُرفُ العيشِ عندي نُكراً
لم يبق من وفري إلا ذكراً ... ثم إلى اليومِ هلمَّ جرّاً
لولا عجزُ لي بسرٍّ من را ... وأفرخ دون جبالِ بصرى
قد جلب الدهرُ عليهم ضرّاً ... قلت يا سادة نفسي صبراً

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ، فَانْتَهَ مَا تَاحَ. وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاحَ. فَجَعَلْتُ أَنْفِيهِ وَأُنْتَبَهُ، وَأَنْكَرُهُ وَكَأَنِّي أَعْرِفُهُ، ثُمَّ
 دَلَّنِي عَلَيْهِ ثَنِيَاءَهُ، قُلْتُ: الْإِسْكَندَرِيُّ وَاللَّهِ، فَقَدْ كَانَ فَارِقَنَا خِشْفًا، وَوَأَفَانَا جِلْفًا، وَنَهَضْتُ عَلَى إِثْرِهِ، ثُمَّ
 قَبِضْتُ عَلَى خَصْرِهِ، وَقُلْتُ: أَلَسْتَ أَبَا الْفَتْحِ؟ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ؟ فَأَيُّ عَجُوزٍ
 لَكَ بِسُرٍّ مَنْ رَأَى؟ فَضَحَكَ إِلَيَّ وَقَالَ:
 وَيْحَكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورٌ ... فَلَا يَعْرِتُكَ الْعُرُورُ
 لَا تَلْتَرِمُ حَالَةً، وَلَكِنْ ... دُرٌّ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ.
 الْمَقَامَةُ الْأَزَادِيَّةُ

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: كُنْتُ بَعْدَازٍ وَقَتَ الْأَزَادِ، فَخَرَجْتُ أَعْتَامُ مِنْ أَنْوَاعِهِ لِابْتِيَاعِهِ، فَسَرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ
 إِلَى رَجُلٍ قَدْ أَخَذَ أَصْنَافَ الْهَوَاكِهَ وَصَنَّفَهَا وَجَمَعَ أَنْوَاعَ الرُّطْبِ وَصَفَّفَهَا، فَقَبِضْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ،
 وَقَرَضْتُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ أَجْوَدَهُ، فَحِينَ جَمَعْتُ حَوَاشِي الْإِزَارِ، عَلَى تِلْكَ الْأَوْزَارِ أَخَذْتُ عَيْنَايَ رَجُلًا قَدْ لَفَّ
 رَأْسَهُ بِرُقُوعٍ حَيَاءً، وَنَصَبَ جَسَدَهُ، وَبَسَطَ يَدَهُ وَاحْتَضَنَ عِيَالَهُ، وَتَأَبَّطَ أَطْفَالَهُ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ يَدْفَعُ
 الضَّعْفَ فِي صَدْرِهِ، وَالْحَرَضَ فِي ظَهْرِهِ:

وَيَلِي عَلَى كَفَّيْنِ مِنْ سَوِيْقٍ ... أَوْ شَحْمَةٍ تُضْرَبُ بِالذَّقِيقِ
 أَوْ قِصْعَةٍ تُمَلَأُ مِنْ خِرْدِيقٍ ... يَفْتَأُ عَنَّا سَطَوَاتِ الرِّيقِ
 يُقِيمُنَا عَنْ مَنْهَجِ الطَّرِيقِ ... يَارَازِقَ الثَّرْوَةِ بَعْدَ الضِّيقِ
 سَهْلٌ عَلَى كَفِّ فَتَى لَبِيقٍ ... ذِي نَسَبٍ فِي مَجْدِهِ عَرِيقِ
 يَهْدِي إِلَيْنَا قَدَمَ التَّوْفِيقِ ... يُنْقِذُ عَيْشِي مِنْ يَدِ التَّرْنِيقِ

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَأَخَذْتُ مِنَ الْكَيْسِ أَخَذَةً وَنُتْنَةً إِيَّاهَا، فَقَالَ:

يَا مَنْ عَنَانِي بِجَمِيلِ بَرٍّ ... أَفْضُ إِلَى اللَّهِ بِحُسْنِ سِرِّهِ

وَاسْتَحْفَظَ اللَّهُ جَمِيلَ سِرِّهِ ... إِنْ كَانَ لَا طَاقَةَ لِي بِشُكْرِهِ

فَاللَّهُ رَبِّي مِنْ وَرَائِي أَجْرَهُ قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: قُلْتُ لَهُ: إِنْ فِي الْكَيْسِ فَضْلًا فَأَبْرُؤْ لِي عَنْ بَاطِنِكَ أَخْرُجْ
 إِلَيْكَ عَنْ آخِرِهِ، فَأَمَاطَ لِثَامَهُ، فَإِذَا وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ، قُلْتُ: وَيْحَكَ أَيُّ دَاهِيَةٍ أَنْتَ؟
 فَقَالَ:

فَقَضَّ الْعُمَرَ تَشْبِيهًا ... عَلَى النَّاسِ وَتَمْوِيهَا

أَرَى الْأَيَّامَ لَا تَبْقَى ... عَلَى حَالٍ فَأَحْكِيهَا

فَيَوْمًا شَرُّهَا فِيَّ ...؟ وَيَوْمًا شَرَّتِي فِيهَا

الْمَقَامَةُ الْبُلْحِيَّةُ

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: نَهَضْتُ بِي إِلَى بَلْحِ تِجَارَةَ الْبَزِّ فَوَرَدْتُهَا وَأَنَا بَعْدَرَةُ الشَّبَابِ وَبَالَ الْفَرَاحِ وَحَلِيَّةِ
 الثَّرْوَةِ، لَا يُهْمُنِي إِلَّا مُهْرَةٌ فِكْرٍ اسْتَفِيدُهَا، أَوْ شَرُودٌ مِنَ الْكَلِمِ أَصِيدُهَا، فَمَا اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ سَمْعِي مَسَافَةً
 مُقَامِي؟؟، أَفْصَحَ مِنْ كَلَامِي، وَمَا حَتَّى الْفِرَاقِ بِنَاقُوسِهِ أَوْ كَادَ دَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ فِي زِيٍّ مِلءِ الْعَيْنِ، وَلِحِيَّةِ
 تَشْوُكٍ الْأَخْدَعَيْنِ، وَطَرَفٍ قَدْ شَرِبَ مَاءَ الرَّافِدَيْنِ، وَلَقِيَنِي مِنَ الْبُرِّ فِي السَّنَاءِ، بِمَا زِدْتُهُ فِي الشَّنَاءِ، ثُمَّ قَالَ:

أَطْعَنَّا ثُرَيْدًا؟ قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ فَقَالَ: أَخْصَبَ رَائِدُكَ، وَلَا ضَلَّ قَائِدُكَ، فَمَتَى عَزَمْتَ؟ فَقُلْتُ: غَدَاةَ غَدٍ،
فَقَالَ:

صَبَّاحُ اللَّهِ لَا صُبْحُ انْطِلَاقٍ ... وَطَيْرُ الْوَصْلِ لَا طَيْرُ الْفِرَاقِ

فَأَيْنَ ثُرَيْدًا؟ قُلْتُ: الْوَطْنَ، فَقَالَ: بُلِّغْتَ الْوَطْنَ، وَقَضَيْتَ الْوَطْرَ، فَمَتَى الْعَوْدُ؟ قُلْتُ: الْقَابِلَ، فَقَالَ: طَوَيْتُ
الرَّيْطَ، وَتَنَيْتَ الْخَيْطَ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْكَرَمِ؟ فَقُلْتُ: بَحَيْثُ أَرَدْتِ، فَقَالَ: إِذَا أَرَجَعَكَ اللَّهُ سَالِمًا مِنْ هَذَا
الطَّرِيقِ، فَاسْتَصْحَبْ لِي عَدُوًّا فِي بُرْدَةِ صَدِيقٍ، مِنْ نَجَارِ الصُّفْرِ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ،
كَدَارَةِ الْعَيْنِ، يَحْطُ ثَقَلُ الدَّيْنِ، وَيُنَافِقُ بَوَاجِهَيْنِ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَلْتَمِسُ دِينَارًا، قُلْتُ: لَكَ ذَلِكَ نَقْدًا، وَمِثْلُهُ وَعَدَا، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

رَأَيْكَ مِمَّا حَظَبْتَ أَعْلَى ... لَا زَلَّتْ لِلْمَكْرَمَاتِ أَهْلًا

صَلَبْتَ عُوْدًا، وَدُمْتَ جُوْدًا ... وَنُقِمْتَ فَرْعًا، وَطَبْتَ أَصْلًا

لَا أَسْتَطِيعُ الْعَطَاءَ حَمَلًا ... وَلَا أَطِيقُ السُّؤَالَ تَقْلًا

قَصُرْتُ عَنْ مُنْتَهَاكَ ظَنًّا ... وَطَلْتُ عَمَّا ظَنَنْتُ فِعْلًا

يَا رُجْمَةَ الدَّهْرِ وَالْمَعَالِي ... لَا لَقِيَ الدَّهْرُ مِنْكَ ثَكْلًا

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَتَنَّهُ الدَّيْنَارَ، وَقُلْتُ: أَيْنَ مَنِيْتُ هَذَا الْفَضْلُ؟ فَقَالَ: نَمَتْنِي فُرَيْشٌ وَمَهَّدَ لِي الشَّرْفُ
فِي بَطَاطِحِهَا، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: أَلَسْتُ بِأَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيِّ؟ أَلَمْ أَرَكَ بِالْعِرَاقِ، تَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ،
مُكَدِّيًا بِالْأَوْرَاقِ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ عَيْدًا ... أَخَذُوا الْعُمَرَ خَلِيطًا

فَهُمْ يُمَسُّونَ أَعْرًا ... بَا، وَيُضْحُونَ نَبِيطًا

الْمَقَامَةُ السَّجْسَتَائِيَّةُ

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

حَدَا بِي إِلَى سَجِسْتَانَ أَرَبٍ، فَاقْبَعَدْتُ طَيْبَةً، وَامْتَطَيْتُ مَطِيئَةً، وَاسْتَخَرْتُ اللَّهَ فِي الْعَزْمِ جَعَلْتُهُ أَمَامِي،
وَالْحَزْمِ جَعَلْتُهُ إِمَامِي حَتَّى هَدَانِي إِلَيْهَا، فَوَاقَيْتُ ذُرُوبَهَا وَقَدَّ وَافَتِ الشَّمْسُ غُرُوبَهَا، وَاتَّفَقَ الْمَيْتُ حَيْثُ
انْتَهَيْتُ، فَلَمَّا انْتَضَى نَصْلُ الصَّبَاحِ، وَبَرَزَ جَيْشُ الْمُصْبَاحِ، مَضَيْتُ إِلَى السُّوقِ أَحْتَارُ مَنْزِلًا، فَحِينَ انْتَهَيْتُ
مِنْ دَائِرَةِ الْبَلَدِ إِلَى قَطْعَتِهَا، وَمِنْ قِلَادَةِ السُّوقِ إِلَى وَسْطِهَا، خَرَقَ سَمْعِي صَوْتٌ لَهُ مِنْ كُلِّ عَرِيقٍ مَعْنَى،
فَانتَحَيْتُ وَفَدُهُ حَتَّى وَقَفْتُ عِنْدَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسِهِ، مُخْتَنِقٌ بِنَفْسِهِ، قَدْ وَلَا نِي قَدَالَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ
عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفَنِي فَأَنَا أَعْرِفُهُ بِنَفْسِي: أَنَا بَا كُورَةُ الْيَمَنِ وَأَحْدُوْتُهُ الزَّمَنُ أَنَا أُدْعِيَةُ الرَّجَالِ
وَأَحْجِيَةُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، سَلُّوا عَنِّي الْبِلَادَ وَحُصُونَهَا، وَالْجِبَالَ وَخُرُونَهَا، وَالْأَوْدِيَةَ وَبُطُونَهَا، وَالْبَحَارَ
وَغُيُونَهَا، وَالْحَيْلَ وَمُتُونَهَا، مَنْ الَّذِي مَلِكُ أَسْوَارِهَا، وَعَرَفَ أَسْرَارَهَا، وَنَهَجَ سَمَتَهَا، وَوَلَجَ حَرَّتَهَا؟ سَلُّوا
الْمُلُوكَ وَخَزَائِنَهَا، وَالْأَغْلَاقَ وَمَعَادِنَهَا، وَالْأُمُورَ وَبَوَاطِنَهَا، وَالْعُلُومَ وَمَوَاطِنَهَا، وَالْحُطُوبَ وَمَعَالِقِهَا، وَالْحُرُوبَ
وَمَصَابِقِهَا، مَنْ الَّذِي أَحَدٌ مُخْتَرَتِهَا، وَلَمْ يُؤَدِّ تَمَنِّيَهَا؟ وَمَنْ الَّذِي مَلِكُ مَفَاتِحِهَا، وَعَرَفَ مَصَالِحِهَا؟ أَنَا وَاللَّهِ

فَعَلْتُ ذَلِكَ، وَسَفَرْتُ بَيْنَ الْمُلُوكِ الصَّيِّدِ، وَكَشَفْتُ أَسْتَارَ الْحُطُوبِ السُّودِ، أَنَا وَاللَّهِ شَهِدْتُ حَتَّى مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ، وَمَرَضْتُ حَتَّى لِمَرَضِ الْأَحْدَاقِ، وَهَصَرْتُ الْعُصُونَ النَّاعِمَاتِ، وَأَجَنَيْتُ وَرَدَ الْخُدُودِ الْمُورِدَاتِ، وَنَفَرْتُ مَعَ ذَلِكَ عَنِ الدُّنْيَا نُفُورَ طَبِيعِ الْكَرِيمِ عَنِ وُجُوهِ اللَّئَامِ، وَتَبَوَّتْ عَنِ الْمُخْزِيَاتِ نُبُو السَّمْعِ الشَّرِيفِ عَنِ شَنِيعِ الْكَلَامِ وَالْآنَ لَمَّا أَسْفَرَ صُبْحُ الْمَشِيبِ، وَعَلَتْنِي أَبْهَةُ الْكِبَرِ، عَمَدْتُ لِإِصْلَاحِ أَمْرِ الْمَعَادِ، بِإِعْدَادِ الزَّادِ، فَلَمْ أَرْ طَرِيقًا أَهْدَى إِلَى الرَّشَادِ مِمَّا أَنَا سَالِكُهُ، يَرَانِي أَحَدُكُمْ رَاكِبَ فَرَسٍ، نَاثِرَ هَوْسٍ، يَقُولُ: هَذَا أَبُو الْعَجَبِ، لَا وَلَكِنِّي أَبُو الْعَجَائِبِ، عَابَيْتُهَا وَعَانَيْتُهَا، وَأُمُّ الْكِبَائِرِ قَايَسْتُهَا وَقَاسَيْتُهَا، وَأَخُو الْأَغْلَاقِ: صَعْبًا وَجَدْتُهَا، وَهُونًا أَضَعْتُهَا، وَغَالِيًا اشْتَرَيْتُهَا، وَرَخِيصًا ابْتَعْتُهَا، فَقَدْ وَاللَّهِ صَحِبْتُ لَهَا الْمَوَاكِبَ، وَرَاحِمْتُ الْمَنَاكِبَ، وَرَعَيْتُ الْكُوَاكِبَ، وَأَنْضَيْتُ الْمَرَائِبَ، دُفِعْتُ إِلَى مَكَارِهِ نَدَرْتُ مَعَهَا أَلَّا أَدْحِرَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَنَافِعَهَا، وَلَا بَدُّ لِي أَنْ أَخْلَعَ رِبْقَةَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ مِنْ عُنُقِي إِلَى أَعْنَاقِكُمْ، وَأَعْرَضَ دَوَائِي هَذَا فِي أَسْوَاقِكُمْ، فَلَيْشْتَرِ مِنِّي مَنْ لَا يَتَفَرَّزُ مِنْ مَوْقِفِ الْعَبِيدِ، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَلَيْصُنَّهُ مَنْ أَنْجَبَتْ جُدُودُهُ، وَسَقَى بِالْمَاءِ الطَّاهِرِ عُوْدُهُ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَدُرْتُ إِلَى وَجْهِهِ لِأَعْلَمَ عِلْمَهُ فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانَرِيُّ، وَانْتَضَرْتُ إِحْفَالَ النَّعَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ تَعَرَّضْتُ فَقُلْتُ: كَمْ يُحِلُّ ذَوَاعِكَ هَذَا؟ فَقَالَ: يُحِلُّ الْكَيْسُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَتُهُ وَأَنْصَرَفْتُ.

الْمَقَامَةُ الْكُوفِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

كُنْتُ وَأَنَا فِي السَّنِّ أَشَدُّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَايَةٍ، وَأَرْكُضُ طِرْفِي إِلَى كُلِّ غَوَايَةٍ، حَتَّى شَرِبْتُ مِنَ الْعُمْرِ سَائِغَهُ، وَلَبِسْتُ مِنَ الدَّهْرِ سَابِغَهُ، فَلَمَّا انْصَحَ النَّهَارُ بِجَانِبِ لَيْلِي، وَجَمَعْتُ لِلْمَعَادِ ذَيْلِي، وَطَطْتُ ظَهْرَ الْمَرْوُضَةِ، لِأَدَاءِ الْمَفْرُوضَةِ، وَصَحْبِي فِي الطَّرِيقِ رَفِيقٌ لَمْ أَنْكَرْهُ مِنْ سُوءِ، فَلَمَّا تَجَالَيْنَا، وَخَبَرْنَا بِحَالِنَا، سَفَرَتْ الْقِصَّةُ عَنِ أَصْلِ كُوفِيٍّ، وَمَذْهَبِ صُوفِيٍّ، وَسِرْنَا فَلَمَّا أَحَلَّنَا الْكُوفَةُ مَلْنَا إِلَى دَارِهِ، وَدَخَلْنَاهَا وَقَدْ بَقَلَ وَجْهُ التَّهَارِ وَأَخْضَرَ جَانِبَهُ، وَلَمَّا اغْتَمَضَ جَفْنُ اللَّيْلِ وَطَرَ شَارِبُهُ، فُرِعَ عَلَيْنَا الْبَابُ، فَهَلْنَا: مَنْ الْقَارِعُ الْمُتَنَابُ؟ فَقَالَ: وَقَدْ اللَّيْلُ وَبَرِيدُهُ، وَقَلُّ الْجُوعِ وَطَرِيدُهُ، وَحُرُّ قَادَةِ الصَّرِّ، وَالزَّمَنُ الْمُرِّ، وَضَيْفٌ وَطَوْهٌ خَفِيفٌ، وَصَالَتُهُ رَغِيفٌ، وَجَارٌ يَسْتَعْدِي عَلَى الْجُوعِ، وَالْجَيْبُ الْمَرْقُوعِ، وَغَرِيبٌ أَوْقَدَتِ النَّارُ عَلَى سَفَرِهِ، وَتَبَحَ الْعَوَاءُ عَلَى أَثَرِهِ، وَبُذِتْ خَلْفَهُ الْحُصِيَّاتُ، وَكُنِسَتْ بَعْدَهُ الْعَرَصَاتُ، فَضَوْهُ طَلِيحٌ، وَعَيْشُهُ تَرِيحٌ، وَمِنْ دُونَ فَرَحِيهِ مَهَامُهُ فَيَحُ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقَبَضْتُ مِنْ كَيْسِي قَبْضَةَ اللَّيْثِ، وَبَعَثْتُهَا إِلَيْهِ وَقُلْتُ: زِدْنَا سُؤَالَ، نَزِدْكَ نَوَالًا، فَقَالَ: مَا عُرِضَ عَرَفُ الْعُودِ، عَلَى أَحَرٍّ مِنْ نَارِ الْجُودِ، وَلَا لَقِيَّ وَقْدُ الْبِرِّ، بِأَحْسَنَ مِنْ بَرِيدِ الشُّكْرِ، وَمَنْ مَلَكَ الْفَضْلَ فَلْيُؤَاسِ، فَلَنْ يَذْهَبَ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ، وَأَمَّا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللَّهُ أَمَلَكَ، وَجَعَلَ الْيَدَ الْعُلْيَا لَكَ. قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَفَتَحْنَا لَهُ الْبَابَ وَقَلْنَا: ادْخُلْ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانَرِيُّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْفَتْحِ، شَدَّ مَا بَلَغَتْ مِنْكَ الْخِصَاصَةُ. وَهَذَا الرَّيُّ خَاصَّةٌ، فَتَبَسَّمَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

لَا يَعْرِتَكَ الَّذِي ... أَنَا فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ
أَنَا فِي ثُرُوءِ تَش ... قُ لَهَا بُرْدَةُ الطَّرْبِ
أَنَا لَوْ شِئْتُ لَأَتَّخِذُ ... تُ سُقُوفًا مِنَ الذَّهَبِ
المَقَامَةُ الأَسَدِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

كَانَ يَبْلُغُنِي مِنْ مَقَامَاتِ الإسْكَنَدَرِيِّ وَمَقَالَاتِهِ مَا يَصْعَقُ إِلَيْهِ التُّفُورُ، وَيَنْفِضُ لَهُ العُصْفُورُ، وَيَرُوي لَنَا مِنْ شِعْرِهِ مَا يَمْتَزِجُ بِأَجْرَاءِ النَّفْسِ رِقَّةً، وَيَعْمُضُ عَن أَوْهَامِ الكَهَنَةِ دِقَّةً، وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بَقَاءَهُ، حَتَّى أُرْزَقَ لِقَاءَهُ، وَأَتَعَجَّبُ مِنْ قُودِ هِمَّتِهِ بِحَالَتِهِ، مَعَ حُسْنِ آتِيهِ، وَقَدْ ضَرَبَ الدَّهْرُ شُرُونَهُ، بِأَسَدَادِ دُونِهِ، وَهَلَمَّ جَرًّا، إِلَى أَنْ اتَّفَقْتُ لِي حَاجَةٌ بِحِمْنٍ فَشَحَذْتُ إِلَيْهَا الحِرْصَ، فِي صُحْبَةِ أَفْرَادِ كَجُومِ اللَّيْلِ، أَخْلَاسِ لظُهُورِ الحَيْلِ، وَأَخَذْنَا الطَّرِيقَ نَنْتَهِبُ مَسَافَتَهُ، وَنَسْتَأْصِلُ شَأْفَتَهُ، وَلَمْ نَزَلْ نَعْرِى أَسْمَةَ النَّجَادِ بِتِلْكَ الحِيَادِ، حَتَّى صِرْنَا كَالعَصِيِّ، وَرَجَعْنَا كَالقَيْسِيِّ، وَتَآخَ لَنَا وَادٍ فِي سَفْحِ جَبَلٍ ذِي الأَاءِ وَأَثَلِ، كَالعَدَارَى يُسْرِحْنَ الصَّفَائِرَ، وَيَنْشُرْنَ العَدَائِرَ، وَمَالَتِ الهَاجِرَةُ بِنَا إِلَيْهَا، وَنَزَلْنَا نُعُورٌ وَنُعُورُ، وَرَبَطْنَا الأَفْرَاسَ بِالأَمْرَاسِ، وَمَلْنَا مَعَ النَّعَاسِ، فَمَا رَاعَنَا إِلَّا صَهِيلُ الحَيْلِ، وَنَظَرْتُ إِلَى فَرَسِي وَقَدْ أَرْهَفَ أُذُنِيهِ، وَطَمَحَ بَعَيْنِيهِ، يَجُذُّ قُوَى الحَبْلِ بِمَشَافِرِهِ، وَيَخُذُّ خَدَّ الأَرْضِ بِحَوَافِرِهِ، ثُمَّ اضْطَرَبَتِ الحَيْلُ فَارْسَلَتِ الأَبْوَالَ، وَقَطَعَتِ الحِيَالَ، وَأَخَذَتِ نَحْوَ الحِيَالَ، وَطَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى سِلَاحِهِ، فَإِذَا السَّعُجُ فِي فُرُوعِ المَوْتِ، قَدْ طَلَعَ مِنْ غَابِهِ، مُنْتَفِخًا فِي إهَابِهِ، كَاشِرًا عَن أُنْيَابِهِ، بِطَرْفٍ قَدْ مَلَى صَلْفًا، وَأَنْفٍ قَدْ حُشِيَ أَنْفًا، وَصَدْرٍ لَا يَبْرُحُهُ القَلْبُ، وَلَا يَسْكُنُهُ الرُّعْبُ، وَقَلْنَا حُطْبٌ مُلِمٌ، وَحَادِثٌ مُهِمٌ، وَتَبَادَرَ إِلَيْهِ مِنْ سُرْعَانِ الرُّقَّةِ فَتَى:

أَخْضَرَ الجِلْدَةَ فِي بَيْتِ العَرَبِ ... يَمَلُّ الدَّلُوءُ إِلَى عَقْدِ الكَرْبِ

بِقَلْبِ سَاقِهِ قَدْرًا، وَسَيْفِ كُلِّهِ أَثْرًا، وَمَلَكَتُهُ سَوْرَةُ الأَسَدِ فَخَانَتُهُ أَرْضُ قَدَمِهِ، حَتَّى سَقَطَ لِيَدِهِ وَفَمِهِ، وَتَجَاوَزَ الأَسَدُ مَصْرَعَهُ، إِلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَدَعَا الحَيْنَ أَخَاهُ، بِمِثْلِ مَا دَعَا، فَصَارَ إِلَيْهِ، وَعَقَلَ الرُّعْبُ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ أَرْضَهُ، وَافْتَرَشَ اللَّيْثُ صَدْرَهُ، وَلَكِنِّي رَمَيْتُهُ بِعِمَامَتِي، وَشَغَلْتُ فَمَهُ، حَتَّى حَقَنْتُ دَمَهُ، وَقَامَ الفَتَى فَوْجًا بَطْنُهُ، حَتَّى هَلَكَ الفَتَى مِنْ خَوْفِهِ، وَالأَسَدُ لِلوَجَاعَةِ فِي جَوْفِهِ، وَنَهَضْنَا فِي أَثْرِ الحَيْلِ فَأَلْفْنَا مِنْهَا مَا ثَبَتَ، وَتَرَكْنَا مَا أَفَلَّتْ، وَعُدْنَا إِلَى الرِّفِيقِ لِنَجْهَزَهُ

فَلَمَّا حَنَوْنَا التُّرْبَ فَوْقَ رَفِيقِنَا جَزَعْنَا وَلَكِنْ أَيُّ سَاعَةِ مَجْزَعٍ

وَعُدْنَا إِلَى الفَلَاةِ، وَهَبَطْنَا أَرْضَهَا، وَسَرِينَا حَتَّى إِذَا ضَمِرَتِ المَرَادُ، وَنَفَدَ الزَّادُ أَوْ كَادَ يُدْرِكُهُ التَّنْفَادُ، وَلَمْ نَمْلِكِ الذَّهَابَ وَلَا الرُّجُوعَ، وَخَفْنَا القَاتِلِينَ الظَّمَاً وَالجُوعَ، عَنَّا لَنَا فَارِسٌ فَصَمَدْنَا صَمَدُهُ، وَقَصَدْنَا قَصْدَهُ، وَلَمَّا بَلَعْنَا نَزَلَ عَن حُرِّ فَرَسِهِ يَنْقُشُ الأَرْضَ بِشَفَتَيْهِ، وَيَلْقِي التُّرَابَ بِيَدَيْهِ، وَعَمَدُنِي مِنْ بَيْنِ الجَمَاعَةِ، فَقَبَّلَ رِكَابِي، وَتَحَرَّمَ بِجَنَابِي، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ وَجْهٌ يَبْرُقُ بِرِقِّ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ، وَقَوَامٌ مِنِّي مَا تَرَقَّ العَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ، وَعَارِضٌ قَدْ اخْضَرَ، وَشَارِبٌ قَدْ طَرَّ، وَسَاعِدٌ مَلَانٌ، وَقَضِيبٌ رِيَانٌ، وَنِجَارٌ تُرْكِيٌّ، وَزَيٌّْ مَلِكِيٌّ، فَقُلْنَا: مَا لَكَ لَا أَبَالِكَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدٌ بَعْضِ المُلُوكِ، هَمٌّ مِنْ قَتْلِي بِهِمْ، فَهَمْتُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى حَيْثُ تَرَانِي،

وَشَهِدَتْ شَوَاهِدُ حَالِهِ، عَلَى صِدْقِ مَقَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا الْيَوْمَ عَبْدُكَ، وَمَالِي مَالُكَ، قُلْتُ: بُشْرَى لَكَ وَبِكَ، أَدَاكَ سَيْرُكَ إِلَى فِنَاءِ رَحْبٍ، وَعَيْشِ رَطْبٍ، وَهَنَاتِي الْجَمَاعَةَ، وَجَعَلَ يَنْظُرُ فَتَقْتُلُنَا أَلْحَاظُهُ، وَيَبْطِئُ فَتَفْتِنُنَا أَلْفَاظُهُ، فَقَالَ: يَا سَادَةُ إِنَّ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ عَيْنًا، وَقَدْ رَكِبْتُمْ فُلَاةَ عَوْرَاءَ، فَخُذُوا مِنْ هُنَالِكَ الْمَاءَ، فَلَوْيُنَا الْأَعْيَةَ إِلَى حَيْثُ أَشَارَ، وَيَلْغَنَاهُ وَقَدْ صَهَرَتِ الْهَاجِرَةُ الْأَبْدَانَ، وَرَكِبَ الْجُنَادِبُ الْعِيدَانَ، فَقَالَ: أَلَا تَقِيلُونَ فِي الظِّلِّ الرَّحْبِ، عَلَى هَذَا الْمَاءِ الْعَذْبِ؟ فَقُلْنَا: أَنْتَ وَذَلِكَ فَتَزَلْ عَنْ فَرَسِهِ، وَحَلَّ مِنْطَقَتَهُ، وَنَحَى قُرْطَقَتَهُ فَمَا اسْتَرَعْنَا إِلَّا بِغَلَالَةٍ تَمُّ عَنْ بَدَنِهِ، فَمَا شَكَّكُنَا أَنَّهُ خَاصِمَ الْوِلْدَانَ، فَفَارَقَ الْجَنَانَ، وَهَرَبَ مِنْ رِضْوَانٍ، وَعَمَدَ إِلَى السُّرُوجِ فَحَطَّهَا، وَإِلَى الْأَفْرَاسِ فَحَشَّهَا، وَإِلَى الْأَمْكِنَةِ فَرَشَّهَا، وَقَدْ حَارَتِ الْبَصَائِرُ فِيهِ، وَوَقَّحَتِ الْأَبْصَارُ عَلَيْهِ، قُلْتُ: يَا فَتَى مَا أَلْطَفَكَ فِي الْخِدْمَةِ، وَأَحْسَنَكَ فِي الْجُمْلَةِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ فَارَقْتَهُ، وَطُوِي لِمَنْ رَافَقْتَهُ، فَكَيْفَ شَكَرُ اللَّهِ عَلَى النِّعْمَةِ بِكَ؟ فَقَالَ: مَا سَتَرُونَهُ مِنِّي أَكْثَرَ، أُنْعَجِبُكُمْ خَفِي فِي الْخِدْمَةِ، وَحُسْنِي فِي الْجُمْلَةِ؟ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتُمُونِي فِي الرَّفْقَةِ؟ أُرِيكُمْ مِنْ حَذَقِي طَرْفًا، لِتَرْدَادُوا بِي شَغَفًا؟ فَقُلْنَا: هَاتِ: فَعَمَدَ إِلَى قَوْسٍ أَحَدِنَا فَأَوْتَرَهُ، وَفَوْقَ سَهْمًا فَرَمَاهُ فِي السَّمَاءِ، وَأَتْبَعَهُ بِآخِرِ فَشَقَّهُ فِي الْهَوَاءِ، وَقَالَ: سَأُرِيكُمْ نَوْعًا آخَرَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى كِنَاتِي فَأَخَذَهَا، وَإِلَى فَرَسِي فَعَلَاهُ، وَرَمَى أَحَدِنَا بِسَهْمٍ أَثْبَتَهُ فِي صَدْرِهِ، وَآخَرَ طَيْرَهُ مِنْ ظَهْرِهِ، قُلْتُ وَيْحَكَ مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: اسْكُتْ يَا لُكْعُ، وَاللَّهِ لَيْشُدَنَّ كُلُّ مِنْكُمْ يَدَ رَفِيقِهِ، أَوْ لِأَغْصِنَهُ بِرَفِيقِهِ، فَلَمْ نَدِرْ مَا تَصْنَعُ وَأَفْرَاسُنَا مَرْبُوطَةٌ، وَسُرُوجُنَا مَحْطُوطَةٌ، وَأَسْلِحَتُنَا بَعِيدَةٌ، وَهُوَ رَاكِبٌ وَنَحْنُ رَجَالَةٌ، وَالْقَوْسُ فِي يَدِهِ يَرِشِقُ بِهَا الظُّهُورَ، وَيَمْسُقُ بِهَا الْبُطُونَ وَالصُّدُورَ، وَحِينَ رَأَيْنَا الْجِدَّ، أَحَدُنَا الْقِدَّ، فَشَدَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَبَقِيَتْ وَحْدِي لَا أَجِدُ مَنْ يَشُدُّ يَدِي، فَقَالَ: اخْرُجْ يَا هَابِيبُ، عَنْ ثِيَابِكَ، فَحَرَجْتَ ثُمَّ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَجَعَلَ يَصْفَعُ الْوَاحِدَ مِنَّا بَعْدَ الْآخَرَ، وَيَتَزَعُ ثِيَابَهُ وَصَارَ إِلَيَّ وَعَلَيَّ خُفَّانِ جَدِيدَانِ، فَقَالَ: اخْلَعْهُمَا لَا أُمَّ لَكَ، قُلْتُ: هَذَا خُفٌّ لِبَسْتُهُ رَطْبًا فَلَيْسَ يُمَكِّنِي نَزْعُهُ، فَقَالَ: عَلَيَّ

خَلْعُهُ، ثُمَّ دَنَا إِلَيَّ لِيَنْزَعَ الْخُفَّ، وَمَلَدَتْ يَدِي إِلَى سِكِّينٍ كَانَتْ مَعِي فِي الْخُفِّ وَهُوَ فِي شُغْلِهِ فَأَثْبَتَهُ فِي بَطْنِهِ، وَأَبْتَنَهُ مِنْ مَتْنِهِ، فَمَا زَادَ عَلَيَّ فَمِ فَعْرَهُ، وَأَلْقَمَهُ حَجْرَهُ، وَقُمْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَخَلَلْتُ أَيْدِيَهُمْ، وَتَوَزَعْنَا سَلْبَ الْقَيْلَيْنِ، وَأَدْرَكْنَا الرَّفِيقَ وَقَدْ جَادَ بِنَفْسِهِ، وَصَارَ لِرُمْسِهِ، وَصِرْنَا إِلَى الطَّرِيقِ، وَوَرَدْنَا حِمَصَ بَعْدَ لِيَالٍ خَمْسٍ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى فُرْصَةٍ مِنْ سُوقِهَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَدْ قَامَ عَلَى رَأْسِ ابْنِ وَبْنِيَّةٍ، بِجِرَابٍ وَعَصِيَّةٍ، وَهُوَ يَقُولُ: عُهُ، ثُمَّ دَنَا إِلَيَّ لِيَنْزَعَ الْخُفَّ، وَمَلَدَتْ يَدِي إِلَى سِكِّينٍ كَانَتْ مَعِي فِي الْخُفِّ وَهُوَ فِي شُغْلِهِ فَأَثْبَتَهُ فِي بَطْنِهِ، وَأَبْتَنَهُ مِنْ مَتْنِهِ، فَمَا زَادَ عَلَيَّ فَمِ فَعْرَهُ، وَأَلْقَمَهُ حَجْرَهُ، وَقُمْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَخَلَلْتُ أَيْدِيَهُمْ، وَتَوَزَعْنَا سَلْبَ الْقَيْلَيْنِ، وَأَدْرَكْنَا الرَّفِيقَ وَقَدْ جَادَ بِنَفْسِهِ، وَصَارَ لِرُمْسِهِ، وَصِرْنَا إِلَى الطَّرِيقِ، وَوَرَدْنَا حِمَصَ بَعْدَ لِيَالٍ خَمْسٍ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى فُرْصَةٍ مِنْ سُوقِهَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَدْ قَامَ عَلَى رَأْسِ ابْنِ وَبْنِيَّةٍ، بِجِرَابٍ وَعَصِيَّةٍ، وَهُوَ يَقُولُ:

رَحِمَ اللَّهُ مَنْ حَشَا ... فِي جِرَابِي مَكَارِمَهُ

رَحِمَ اللَّهُ مَنْ رَنَا ... لِسَعِيدٍ وَفَاطِمَةَ

إِنَّهُ خَادِمٌ لَكُمْ ... وَهِيَ لَا شَكَّ خَادِمَةٌ

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الْإِسْكَندَرِيُّ الَّذِي سَمِعْتُ بِهِ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَإِذَا هُوَ هُوَ، فَدَلَفْتُ إِلَيْهِ، وَقُلْتُ: احْتَكِمْ حُكْمَكَ فَقَالَ: دِرْهَمٌ، فَقُلْتُ:

لَكَ دِرْهَمٌ فِي مِثْلِهِ ... مَا دَامَ يُسْعِدُنِي النَّقْسُ

فَاحْسُبْ حِسَابَكَ وَاتِمَسْ ... كَيْمَا أُبِيلُ الْمُتَمَسِّسَ

وَقُلْتُ لَهُ: دِرْهَمٌ فِي اثْنَيْنِ فِي ثَلَاثَةٍ فِي أَرْبَعَةٍ فِي خَمْسَةٍ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعِشْرِينَ، ثُمَّ قُلْتُ: كَمْ مَعَكَ؟ قَالَ: عِشْرُونَ رَغِيفًا، فَأَمَرْتُ لَهُ بِهَا، وَقُلْتُ: لَا تَصْرَمَعَ الْخِذْلَانَ، وَلَا حِيلَةَ مَعَ الْحَرَمَانَ.

الْمَقَامَةُ الْغَيْلَانِيَّةُ

حَدَّثَنِي عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

بَيْنَمَا نَحْنُ بَجُرْجَانَ، فِي مُجْتَمَعٍ لَنَا تَتَحَدَّثُ، وَمَعَنَا يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ الْعَرَبِ حَفِظًا وَرَوَايَةً، وَهُوَ عِصْمَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ، فَأَقْصَى بِنَا الْكَلَامَ إِلَى ذِكْرِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ خِصْمِهِ حِلْمًا، وَمِنْ أَعْرَضَ عَنْ خِصْمِهِ اخْتِقَارًا، حَتَّى ذَكَرْنَا الصَّلَاتَانَ الْعُدِيَّ وَالْيَيْثَ، وَمَا كَانَ مِنْ اخْتِقَارِ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ لَهَمَّا، فَقَالَ عِصْمَةُ: سَأَحْدِثُكُمْ بِمَا شَاهَدْتُهُ عَيْنِي، وَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ غَيْرِي، بَيْنَمَا أَنَا أُسِيرُ فِي بِلَادِ تَمِيمٍ مُرْتَجِلًا نَجِيَّةً، وَقَائِدًا جَنِيَّةً، عَنْ لِي رَاكِبٌ عَلَى أَوْرَقِ جَعْدِ اللَّعَامِ، فَحَاذَانِي حَتَّى إِذَا صَكَ الشَّبْحُ بِالشَّبْحِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، مَنْ الرَّاكِبُ الْجَهْرُ الْكَلَامِ الْمُحْيِي بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: أَنَا غَيْلَانُ بْنُ عُقَيْبَةَ، فَقُلْتُ: مَرَحَبًا بِالكَرِيمِ حَسْبَهُ الشَّهْرِ نَسْبُهُ، السَّائِرُ مِنْطِقُهُ، فَقَالَ: رَحْبٌ وَادِيكَ، وَعَزٌّ نَادِيكَ، فَمَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: عِصْمَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ، قَالَ: حَيَّاكَ اللَّهُ نِعَمَ الصَّدِيقِ، وَالصَّاحِبِ الرَّفِيقِ، وَسِرْنَا فَلَمَّا هَجَرْنَا قَالَ: أَلَا نُعَوِّرُ يَاعِصْمَةُ فَقَدْ صَهَرْتَنَا الشَّمْسُ؟ فَقُلْتُ: أَنْتَ وَذَاكَ، فَمِلْنَا إِلَى شَجَرَاتٍ أَلَاءَ كَأَنَّهُنَّ عِدَارِي مُتَبَرِّجَاتٍ، قَدْ نَشَرْنَ غَدَائِرَهُنَّ، لِأَثَلَاتٍ تُنَاوِحُهُنَّ، فَحَطَطْنَا رِحَالَنَا، وَنَلْنَا مِنَ الطَّعَامِ، وَكَانَ ذُو الرُّمَّةِ زَهِيدَ الْأَكْلِ، وَصَلِينَا بَعْدُ، وَآلَ كُلِّ وَاحِدٍ مَنَا إِلَى ظِلِّ أَثَلَةٍ يُرِيدُ الْقَائِلَةَ، وَاضْطَجَعَ ذُو الرُّمَّةِ، وَارْدَتْ أَنْ أَصْنَعَ مِثْلَ صَنِيعِهِ، فَوَلَّيْتُ ظَهْرِي الْأَرْضَ، وَعَيْنَايَ لَا يَمْلِكُهُمَا غُمُضٌ، فَتَنَظَّرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَى نَاقَةٍ كَوْمَاءَ قَدْ ضَحِيَتْ وَغَبِيْطُهَا مُلْقَى، وَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يَكْلَأُهَا كَأَنَّهُ عَسِيفٌ أَوْ أَسِيفٌ فَلَهَيْتُ عَنْهُمَا، وَمَا أَنَا وَالسُّؤَالَ عَمَّا لَا يَعْينِي؟ وَنَامَ ذُو الرُّمَّةِ غَوَارًا، ثُمَّ انْتَبَهَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ مُهَاجَرَتِهِ لِلذَّكَ الْمُرِّيِّ، فَرَفَعَ عَقْبِرَتَهُ وَأَنْشَدَ يَقُولُ:

أَمِنْ مِيَّةِ الطُّلُلِ الدَّارِسُ ... أَلْظَّ بِهِ الْعَاصِفُ الرَّاسِسُ

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَجِيحُ الْقُدَالِ ... وَمُسْتَوْقَدٌ مَا لَهُ قَابِسُ

وَحَوْضٌ تَتَلَّمُ مِنْ جَانِبِيهِ ... وَمُحْتَفَلٌ دَارِسُ طَامِسُ

وَعَهْدِي بِهِ وَبِهِ سَكْنُهُ ... وَمِيَّةُ وَالْإِنْسُ وَالْإِنْسُ

كَأَنِّي بِمِيَّةٍ مُسْتَنْفَرٌ ... غَرَالًا تَرَأَى لَهُ عَاطِسُ

إِذَا جَسَتْهَا رَدْنِي عَبَسُ ... رَقِيبٌ عَلَيْهَا لَهَا حَارِسُ

سَتَاتِي امْرَأَ الْقَيْسِ مَأْثُورَةٌ ... يُعْنِي بِهَا الْعَابِرُ الْجَالِسُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ قَدْ ... أَلْظَبَ بِهِ دَاوُدُ النَّاجِسُ
هُمُ الْقَوْمُ لَا يَأْلُمُونَ الْهَجَاءَ ... وَهَلْ يَأْلَمُ الْحَجْرُ الْيَابِسُ
فَمَا لَهُمْ فِي الْعَلَا رَاكِبٌ ... وَلَا لَهُمْ فِي الْوَعَى فَارِسُ
مُمرَّطَةٌ فِي حِيَاضِ الْمَلَامِ ... كَمَا دَعَسَ الْأَدَمَ الدَّاعِسُ
إِذَا طَمَحَ النَّاسُ لِلْمَكْرَمَاتِ ... فَطَرَفُهُمُ الْمُطْرُقُ النَّاعِسُ
تَعَاَفُ الْأَكَارِمُ إِصْهَارَهُمْ ... فَكُلُّ أَيَامَاهُمْ عَانِسُ

فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْيَتَّ تَبَّهَ ذَلِكَ النَّائِمُ، وَجَعَلَ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ، وَيَقُولُ: أَذُو الرُّمَيْمَةِ يَمْنَعُنِي النَّوْمُ بِشِعْرِ غَيْرِ
مُتَقَفٍ وَلَا سَائِرٍ؟ فَقُلْتُ يَا غَيْلَانَ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: الْفَرَزْدَقُ، وَحَمِي ذُو الرُّمَّةِ فَقَالَ:

وَأَمَّا مُجَاشِعُ الْأَرْدَلُونَ ... فَلَمْ يَسْقُ مِنْبَتَهُمْ رَاجِسُ
سَيِّعِقِلَهُمْ عَنْ مَسَاعِي الْكِرَامِ ... عِقَالٌ، وَيَحْسِبُهُمْ حَابِسُ
فَقُلْتُ: الْآنَ يَشْرُقُ فَيْشُورُ، وَيَعْمُ هَذَا وَقَبِيلَتُهُ بِالْهَجَاءِ، فَوَاللَّهِ مَا زَادَ الْفَرَزْدَقُ عَلَيَّ أَنْ قَالَ: قُبْحًا لَكَ يَا ذَا
الرُّمَيْمَةِ! أَتَعْرِضُ لِمِثْلِي بِمَقَالٍ مُنْتَحَلٍ؟ ثُمَّ عَادَ فِي نَوْمِهِ كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا، وَسَارَ ذُو الرُّمَّةِ وَسِرْتُ مَعَهُ،
وَإِنِّي لِأَرَى فِيهِ انْكِسَارًا حَتَّى أَفْتَرَقْنَا.

المقامة الأذربيجانية

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: لَمَّا نَطَقَنِي الْعِنَى بِفَاضِلِ ذَيْلِهِ، أَتَهَمْتُ بِمَالِ سَلْبَتِهِ، أَوْ كَنَزِ أَصْبَتِهِ، فَحَفَزَنِي اللَّيْلُ،
وَسَرْتُ بِي الْخَيْلُ، وَسَلَكْتُ فِي هَرَبِي مَسَالِكَ لَمْ يَرْضَهَا السَّيْرُ، وَلَا اهْتَدَتْ إِلَيْهَا الطَّيْرُ، حَتَّى طَوَيْتُ أَرْضَ
الرُّعْبِ وَتَجَاوَزْتُ حُدُودَهُ، وَصِرْتُ إِلَى حِمَى الْأَمْنِ وَوَجَدْتُ بَرْدَهُ، وَبَلَغْتُ أذربيجَانَ وَقَدْ خَفِيَتْ الرِّوَا حِلُّ،
وَأَكَلَتْهَا الْمَرَا حِلُّ، وَلَمَّا بَلَغْتَهَا:

نَزَلْنَا عَلَى أَنَّ الْمَقَامَ ثَلَاثَةَ ... فَطَابَتْ لَنَا حَتَّى أَقْمَنَا بِهَا شَهْرًا

فَبَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي بَعْضِ أَسْوَاقِهَا إِذْ طَلَعَ رَجُلٌ بِرُكُودَةٍ قَدْ اعْتَصَدَهَا وَعَصَا قَدْ اعْتَمَدَهَا، وَدَنِيَّةٌ قَدْ تَقَلَّسَهَا،
وَفُوطَةٌ قَدْ تَطَلَّسَهَا، فَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ وَقَالَ: اللَّهُمَّ يَا مُبْدِي الْأَشْيَاءِ وَمُعِيدَهَا، وَمُحْيِي الْعِظَامِ وَمُمِيدَهَا، وَخَالِقَ
الْمِصْبَاحِ وَمُدِيرَهُ، وَفَالِقِ الْإِصْبَاحِ وَمُنِيرَهُ، وَمُوصِلِ الْآلَاءِ سَابِغَةَ الْبِنَا، وَمُمْسِكِ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَيْنَا،
وَبَارِي النَّسَمِ أَزْوَاجًا وَجَاعِلِ الشَّمْسِ سِرَاجًا، وَالسَّمَاءِ سَقْفًا وَالْأَرْضِ فِرَاشًا، وَجَاعِلِ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالنَّهَارِ
مَعَاشًا، وَمُنْشِي السَّحَابِ ثِقَالًا، وَمُرْسِلِ الصَّوَاعِقِ نِكَالًا، وَعَالِمِ مَا فَوْقَ التُّجُومِ وَمَا تَحْتَ التُّخُومِ، أَسْأَلُكَ
الصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ، وَأَنْ تُعِينَنِي عَلَى الْغُرْبَةِ أَتْنِي حَبْلَهَا، وَعَلَى الْعُسْرَةِ أَعْدُو
ظِلِّهَا، وَأَنْ تُسَهِّلَ لِي عَلَى يَدَيَّ مِنْ فِطْرَتِهِ الْفِطْرَةَ، وَأَطْلَعَنِي الطُّهْرَةَ، وَسَعِدَ بِالدِّينِ الْمَتِينِ، وَلَمْ يَعْمَ عَنِ الْحَقِّ
الْمُبِينِ، رَاحِلَةً تَطْوِي هَذَا الطَّرِيقَ، وَزَادًا يَسْعُنِي وَالرَّفِيقَ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَتَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ إِسْكَانِدَرِيْنَا أَبِي الْفَتْحِ، وَالنَّفْتُ لَفْتَةٌ فَإِذَا هُوَ
وَاللَّهُ أَبُو الْفَتْحِ، فَقُلْتُ يَا أَبَا الْفَتْحِ بَلَغَ هَذِهِ الْأَرْضَ كَيْدُكَ، وَانْتَهَى إِلَى هَذَا الشَّعْبِ صَيْدُكَ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

أَنَا جَوَّالَةُ الْبِلَا ... دِ جَوَّابَةُ الْأَفْقِ

أَنَا خُذْرُوفَةُ الزَّمَا ... نِ وَعَمَّارَةُ الطَّرُقِ
لَا تَلْمَنِي لَكَ الرَّشَا ... دُ عَلَي كُدَيْتِي وَذُقْ
الْمَقَامَةَ الْجُرْجَانِيَّةُ
حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

بَيْنَمَا نَحْنُ بِجُرْجَانَ، فِي مَجْمَعٍ لَنَا تَتَحَدَّثُ وَمَا فِيْنَا إِلَّا مِنَّا، إِذْ وَقَفَ عَلَيْنَا رَجُلٌ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْمُتَمَدِّدِ، وَلَا
الْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، كَثُ الْعُثُونِ، يَتْلُوهُ صِعَارًا فِي أَطْمَارِ، فَافْتَحَ الْكَلَامَ بِالسَّلَامِ، وَتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، فَوَلَانَا جَمِيلًا،
وَأَوْلِيَانَاهُ جَرِيلاً، فَقَالَ: يَا قَوْمُ إِنِّي أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، مِنْ الثُّغُورِ الْأَمْوِيَّةِ نَمَتْنِي سُلَيْمٌ وَرَحِبْتِي بِي
عَيْسَى جُبْتُ الْآفَاقَ، وَتَقَصَّيْتُ الْعِرَاقَ، وَجَلْتُ الْبَدُوَ وَالْحَضَرَ، وَدَارِي رَيْبَعَةَ وَمُضَرَ، مَا هُنْتُ، حَيْثُ كُنْتُ،
فَلَا يُزِيرُنِي بِي عِنْدَكُمْ مَا تَرَوْنَهُ مِنْ سَمَلِي وَأَطْمَارِي، فَلَقَدْ كُنَّا وَاللَّهِ مِنْ أَهْلِ تَمِّ وَرَمِّ، نُرْغِي لَدَى الصَّبَاحِ
وَنُثْنِي عِنْدَ الرَّوَّاحِ

وَفِيْنَا مَقَامَاتٌ حَسَنَاتٌ وَجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ.
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رَزَقٌ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ عِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَّاحَةُ وَالْبَدْلُ

ثُمَّ إِنَّ الدَّهْرَ يَا قَوْمُ قَلَبَ لِي مِنْ بَيْنِهِمْ ظَهَرَ الْمَجَنُّ، فَاعْتَصَمْتُ بِالنُّومِ السَّهْرِ، وَبِالْإِقَامَةِ السَّفَرِ، تَتَرَامِي بِي
الْمَرَامِي، وَتَنْهَادِي بِي الْمَوَامِي، وَقَلَعْتَنِي حَوَادِثُ الزَّمَنِ قَلْعَ الصَّمْعَةِ، فَأَصْبَحُ وَأُمْسِي أَنْقَى مِنَ الرَّاحَةِ وَأَعْرَى
مِنْ صَفْحَةِ الْوَلِيدِ، وَأَصْبَحْتُ فَارِغَ الْفِنَاءِ، صَفِيرَ الْإِنَاءِ، مَالِي إِلَّا كَابَةَ الْأَسْفَارِ، وَمُعَاقِرَةَ السَّفَارِ، أُعَانِي
الْفَقْرَ، وَأَمَانِي الْقَفْرَ، فِرَاشِي الْمَدْرُ، وَوَسَادِي الْحَجْرُ.

بِأَمَدٍ مَرَّةً وَبِرَأْسِ عَيْنٍ ... وَأَحْيَانًا بِمِيَا فَارِقِينَا

لَيْلَةً بِالشَّامِ ثُمَّتْ بِالْأَهْ ... وَازِ رَحْلِي وَلَيْلَةً بِالْعِرَاقِ

فَمَا زَالَتِ النَّوَى تَطْرُحُ بِي كُلَّ مَطْرَحٍ، حَتَّى وَطِئْتُ بِلَادَ الْحَجْرِ وَأَحْلَسْتَنِي بِلَدِ هَمْدَانَ، فَقَبِلَنِي أَحْيَاؤُهَا،
وَأَشْرَابَ إِلَى أَحْيَاؤُهَا، وَلَكِنِّي مَلْتُ لِأَعْظَمِهِمْ جَفْنَةً، وَأَزْهَدِهِمْ جَهْوَةً:

لَهُ نَارٌ تُشَبُّ عَلَى يَفَاعٍ ... إِذَا النَّبْرَانُ أُلْبَسَتْ الْقِنَاعُ

فَوَطَأَ لِي مَضْجَعًا، وَمَهَّدَ لِي مَهْجَعًا، فَإِنْ وَنَى لِي وَنِيَّةً هَبَّ لِي ابْنٌ كَأَنَّهُ سَيْفٌ يَمَانٍ، أَوْ هِلَالٌ بَدَا فِي غَيْرِ
قَتْمَانٍ وَأَوْلَايَ نِعْمًا صَاقَ عَنْهَا قَدْرِي، وَاتَّسَعَ بِهَا صِلْرِي، أَوْ لَهَا فَرُشُ الدَّارِ، وَآخِرُهَا أَلْفُ دِينَارٍ، فَمَا
طَيْرْتَنِي إِلَّا النَّعْمَ حَيْثُ تَوَّالَتْ، وَالِدَيْمٍ لَمَّا انْتَالَتْ، فَطَلَعْتُ مِنْ هَمْدَانَ طُلُوعَ الشَّارِدِ، وَفَرَّتْ نِفَارَ الْآبِدِ،
أَفْرِي الْمَسَالِكِ، وَأَقْتَهَرُ الْمَهَالِكِ، وَأَعَانِي الْمَمَالِكِ، عَلَى أَنِّي خَلَفْتُ أُمَّ مَثْوَايَ وَزَعْلَوْلَا لِي.

كَأَنَّهُ دُمْلُجٌ مِنْ فِصَّةِ نَبَّةٍ ... فِي مَلْعَبٍ مِنْ عَذَارَى الْحَيِّ مَفْصُومٌ

وَقَدْ هَبَّتْ بِي إِلَيْكُمْ رِيحُ الْإِحْتِيَاجِ، وَنَسِيمُ الْإِنْفَاجِ، فَانْظُرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ لِنِقْضِ مِنَ الْأَنْقَاضِ مَهْزُولٍ، هَدَيْتُهُ
الْحَاجَةَ، وَكَدَّتُهُ الْفَاقَةَ:

أَخَا سَفَرٍ، جَوَّابِ أَرْضٍ، تَفَادَفْتُ ... بِهِ فَلَوَاتٌ؛ فَهَوَ أَشْنَعْتُ أُغْبِرُ

جَعَلَ اللَّهُ لِلْخَيْرِ عَلَيْكُمْ دَلِيلًا، وَلَا جَعَلَ لِلشَّرِّ إِلَيْكُمْ سَبِيلًا.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَرَقْتُ وَاللَّهِ لَهُ الْقُلُوبُ، وَأَعْرُورِقْتُ لِلطُّفِّ كَلَامِهِ الْعِيُونُ، وَتُلْنَاهُ مَا تَاحَ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ، وَأَعْرَضَ عَنَّا حَامِدًا لَنَا، فَتَبِعْتُهُ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهُ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ.
الْمَقَامَةُ الْأَصْفَهَانِيَّةُ
حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

كُنْتُ بِأَصْفَهَانَ، أَعْتَرَمُ الْمَسِيرَ إِلَى الرَّيِّ، فَحَلَلْتُهَا حُلُولَ الْفَيِّ، أَتَوَقَّعُ الْقَافِلَةَ كُلَّ لَمَحَةٍ، وَأَتَرَقُّبُ الرَّاحِلَةَ كُلَّ
صَبْحَةٍ، فَلَمَّا حَمَّ مَا تَوَقَّعْتُهُ نُودِي لِلصَّلَاةِ نِدَاءً سَمِعْتُهُ، وَتَعَيَّنَ فَرَصُ الْإِجَابَةِ، فَانْسَلَّتْ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ،
أَعْتَنِمُ الْجَمَاعَةَ أُدْرِكُهَا، وَأَخْشَى فَوْتَ الْقَافِلَةِ أَتْرُكُهَا، لَكِنِّي اسْتَعْتُ بَرَكَاتِ الصَّلَاةِ، عَلَى وَعْنَاءِ الْفَلَاةِ،
فَصِرْتُ إِلَى أَوَّلِ الصُّفُوفِ، وَمَنْلْتُ لِلْوُقُوفِ، وَتَقَدَّمَ الْإِمَامُ إِلَى الْمِحْرَابِ، فَقَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، بِقِرَاءَةِ حَمَزَةٍ،
مَدَّةً وَهَمَزَةً، وَبِي الْعَمُّ الْمُقِيمُ الْمُفْعِدُ فِي فَوْتِ الْقَافِلَةِ، وَالْبُعْدُ عَنِ الرَّاحِلَةِ، وَاتَّبَعَ الْفَاتِحَةَ الْوَاقِعَةَ، وَأَنَا
أَتَصَلَّى نَارَ الصَّبْرِ وَأَتَصَلِّبُ، وَأَتَقَلَّى عَلَى جَمْرِ الْغَيْظِ وَأَتَقَلِّبُ، وَلَيْسَ إِلَّا السُّكُوتُ وَالصَّبْرُ، أَوْ الْكَلَامُ
وَالْقَبْرُ؛ لِمَا عَرَفْتُ مِنْ خُشُوعَةِ الْقَوْمِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، أَنْ لَوْ قُطِعَتِ الصَّلَاةُ دُونَ السَّلَامِ، فَوَقَّهْتُ بِقَدَمِ
الضَّرُورَةِ، عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ إِلَى انْتِهَاءِ السُّورَةِ، وَقَدْ قُطِعَتْ مِنَ الْقَافِلَةِ، وَأَيْسْتُ مِنَ الرَّحْلِ وَالرَّاحِلَةِ، ثُمَّ
حَتَّى قَوْسَهُ لِلرُّكُوعِ، بَنُوعٍ مِنَ الْخُشُوعِ، وَضَرْبٍ مِنَ الْخُضُوعِ، لَمْ أَعْهَدَهُ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ،
وَقَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَقَامَ حَتَّى مَا شَكَّكَتُ أَنَّهُ قَدْ نَامَ، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَمِينِهِ، وَأَكْبَأَ لِيَجِينَهُ، ثُمَّ انْكَبَّ
لِوَجْهِهِ، وَرَفَعْتُ رَأْسِي أَنْتَهَزُ فُرْصَةً، فَلَمْ أَرِ بَيْنَ الصُّفُوفِ فُرْجَةً، فَعُدْتُ إِلَى السُّجُودِ، حَتَّى كَبَّرَ لِلْقُعُودِ،
وَقَامَ إِلَى الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ، فَقَرَأَ الْفَاتِحَةَ وَالْقَارِعَةَ، قِرَاءَةً اسْتَوْفَى بِهَا عُمَرُ السَّاعَةَ، وَاسْتَنْزَفَ أَرْوَاحَ الْجَمَاعَةِ،
فَلَمَّا فَرِغَ مِنْ رَكْعَتَيْهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى التَّشْهُدِ بِلَحْيَيْهِ، وَمَالَ إِلَى التَّحِيَّةِ بِأَخْذِ عَيْنِهِ، وَقُلْتُ: قَدْ سَهَّلَ اللَّهُ الْمَخْرَجَ،
وَقَرَّبَ الْفَرَجَ، قَامَ رَجُلٌ وَقَالَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحِبُّ الصَّحَابَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَلْيُعْرِنِي سَمْعَهُ سَاعَةً.
قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَلَزِمْتُ أَرْضِي، صِيَانَةَ لِعَرْضِي، فَقَالَ: حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا أَشْهَدُ إِلَّا
بِالصِّدْقِ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبِشَارَةٍ مِنْ نَبِيِّكُمْ، لَكِنِّي لَا أُوَدِّيْهَا حَتَّى يُطَهَّرَ اللَّهُ هَذَا الْمَسْجِدَ مِنْ كُلِّ نَذْلٍ يَجْحُدُ
نُبُوءَتَهُ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَرَبِطُنِي بِالْقَيْوُدِ، وَشَدَّنِي بِالْحَبَالِ السُّودِ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ،
كَالشَّمْسِ تَحْتَ الْعَمَامِ، وَالْبَلْبُرِ لَيْلَ التَّمَامِ، يَسِيرُ وَالثُّجُومُ تَتْبَعُهُ، وَيَسْحَبُ الذَّيْلَ وَالْمَلَائِكَةُ تَرْفَعُهُ، ثُمَّ عَلِمَنِي
دُعَاءً أَوْصَانِي أَنْ أَعْلَمَ ذَلِكَ أُمَّتَهُ، فَكَتَبْتُهُ عَلَى هَذِهِ الْأَوْزَاقِ بِخُلُوقٍ وَمِسْكِ، وَزَعْفَرَانٍ وَسُكِّ، فَمَنْ
اسْتَوْهَبَهُ مِنِّي وَهَبْتُهُ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ تَمَنَّ الْقِرْطَاسِ أَخَذْتُهُ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَلَقَدْ انْتَالَتْ عَلَيْهِ اللَّزَاهِمُ حَتَّى حَيَّرْتُهُ، وَخَرَجَ فَتَبِعْتُهُ مُتَعَجِّبًا مِنْ حِلْقِهِ بِرِزْقِهِ،
وَتَمَحَّلُ رِزْقِهِ، وَهَمَمْتُ بِمَسْأَلَتِهِ عَنْ حَالِهِ فَأَمْسَكْتُ، وَبِمُكَالَامَتِهِ فَسَكَتُ، وَتَأَمَّلْتُ فَصَاحَتَهُ فِي وَقَاحَتِهِ،
وَمَلَاحَتَهُ فِي اسْتِمَاحَتِهِ، وَرَبِطُهُ النَّاسَ بِحِيلَتِهِ، وَأَخَذَهُ الْمَالَ بَوْسِيلَتِهِ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ،
فَقُلْتُ: كَيْفَ اهْتَدَيْتَ إِلَى هَذِهِ الْحِيلَةِ فَتَبَسَّمَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

النَّاسُ حُمْرٌ فَجَوَزُ ... وَابْرُزَ عَلَيْهِمْ وَبُرُزَ
حَتَّى إِذَا نَلَتْ مِنْهُمْ ... مَا تَشْتَهِيهِ فَفَرَّوْزُ
المَقَامَةُ الْأَهْوَاذِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: كُنْتُ بِالْأَهْوَاذِ، فِي رُفْقَةٍ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِمْ تَسَهَّلَ، لَيْسَ فِيْنَا إِلَّا أَمْرُدُ بَكَرُ
الْأَمَالِ، أَوْ مُخْتَطُّ حَسَنِ الْإِقْبَالِ، مَرَجُو الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِ، فَأَفْضْنَا فِي الْعِشْرَةِ كَيْفَ نَضَعُ قَوَاعِدَهَا، وَالْأُخُوَّةَ
كَيْفَ نُحْكِمُ مَعَاقِدَهَا، وَالسُّرُورَ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَقَاذَهَا، وَالشُّرْبَ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَتَعَاظَاهَا، وَالْأَنْسَ كَيْفَ
نَتَهَادَاهَا، وَفَاتِ الْحِطِّ كَيْفَ نَتَلَفَاهَا، وَالشُّرَابَ مِنْ أَيْنَ نُحْصِلُهَا، وَالْمَجْلِسَ كَيْفَ نُزِينُهُ. فَقَالَ أَحَدُنَا: عَلَيَّ
الْبَيْتُ وَالتَّنْزُلُ، وَقَالَ آخَرُ: عَلَيَّ الشُّرَابُ وَالتَّنْقُلُ، وَلَمَّا أَجْمَعْنَا عَلَى الْمَسِيرِ اسْتَقْبَلَنَا رَجُلٌ فِي طِمْرَيْنِ فِي
يُمْنَاهُ عُكَاذَةٌ، وَعَلَى كَيْفِيهِ جِنَازَةٌ، فَطَطَّرْنَا لَمَّا رَأَيْنَا الْجِنَازَةَ وَأَعْرَضْنَا عَنْهَا صَفْحًا، وَطَوَيْنَا دُونَهَا كَشْحًا،
فَصَاحَ بِنَا صِيحَةً كَادَتْ الْأَرْضُ لَهَا تَنْفَطِرُ، وَالتُّجُومُ تَنْكَدِرُ، وَقَالَ: لَتَرَوْنَهَا صُغْرًا وَلَتَرَكِبْنَهَا كَرْهًا وَقَسْرًا،
مَا لَكُمْ تَطْيِرُونَ مِنْ مَطْيِيَةِ رَكِبَهَا أَسْلَافُكُمْ، وَسَيَّرَكِبَهَا أَخْلَافُكُمْ، وَتَتَقَدَّرُونَ سَرِيرًا وَطِنَهُ أَبَاؤُكُمْ، وَسَيَطُوهُ
أَبْنَاؤُكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَتُحْمَلَنَّ عَلَيَّ هَذِهِ الْعَيْدَانِ، إِلَى تِلْكَ الْمُدَيِّدَانِ، وَلَتَنْقَلَنَّ بِيَهِنَّ الْحِيَادِ، إِلَى تِلْكَ الْوَهَادِ،
وَيُحْكِمَنَّ تَطْيِرُونَ، كَأَنَّكُمْ مُخَيَّرُونَ، وَتَتَكْرَهُونَ، كَأَنَّكُمْ مُنْزَهُونَ، هَلْ تَنْفَعُ هَذِهِ الطَّيْرُ، يَا فَجْرَةٌ؟ .
قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَلَقَدْ نَقَضَ مَا كُنَّا عَقَدْنَاهُ، وَأَبْطَلَ مَا كُنَّا أَرَدْنَاهُ، فَمَلْنَا إِلَيْهِ وَقُلْنَا لَهُ: مَا أَحْوَجَنَا إِلَى
وَعِظْكَ، وَأَعَشَقْنَا لِلْفِظْكَ، وَلَوْ شِئْتَ لَرِدْتَنَا قَالَ: إِنْ وَرَاءَكُمْ مَوَارِدُ أَنْتُمْ وَارِدُوهَا، وَقَدْ سِرْتُمْ إِلَيْهَا عِشْرِينَ
حِجَّةً:

وَإِنْ أَمْرًا قَدْ سَارَ عِشْرِينَ حِجَّةً ... إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لِقَرِيبُ
وَمِنْ فَوْقِكُمْ مِنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَهَتَكَ أَسْتَارَكُمْ، يُعَامِلُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِحِلْمٍ، وَيَقْضِي عَلَيْكُمْ فِي
الْآخِرَةِ بِعِلْمٍ، فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ مِنْكُمْ عَلَى ذِكْرٍ، لَعَلَّا تَأْتُوا بِنُكْرٍ، فَإِنَّكُمْ إِذَا اسْتَشَعَرْتُمُوهُ لَمْ تَجْمَعُوا، وَمَتَى
ذَكَرْتُمُوهُ لَمْ تَمْرَحُوا، وَإِنْ نَسِيْتُمُوهُ فَهُوَ ذَاكِرُكُمْ، وَإِنْ نَمِئْتُمْ عَنْهُ فَهُوَ تَائِرُكُمْ، وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ فَهُوَ زَائِرُكُمْ،
قُلْنَا: فَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: أَطُولُ مِنْ أَنْ تُحَدِّدَ، وَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُعَدَّ، قُلْنَا: فَسَانِحِ الْوَقْتِ، قَالَ: رَدُّ فَاتِ الْعُمْرِ،
وَدَفْعُ نَازِلِ الْأَمْرِ، قُلْنَا: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْنَا، وَلَكِنْ مَا شِئْتَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَرُخْرِفِهَا، قَالَ لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا،
وَإِنَّمَا حَاجَتِي بَعْدَ هَذَا أَنْ تَخِدُوا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَعُوا.

المَقَامَةُ الْبُعْدَادِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

اشْتَهَيْتُ الْأَرَاذَ، وَأَنَا بِبُعْدَاذَ، وَلَيْسَ مَعِيَ عَقْدٌ عَلَى نَفْسِي، فَخَرَجْتُ أَنْتَهَزُ مَحَالَّهُ حَتَّى أَحْلِي الْكَرْحَ، فَإِذَا أَنَا
بِسَوَادِيَّ يَسُوقُ بِالْجَهْدِ حِمَارَهُ، وَيَطْرَفُ بِالْعَقْدِ إِزَارَهُ، فَقُلْتُ: ظَفَرْنَا وَاللَّهِ بِصَيْدِي، وَحَيَّاكَ اللَّهُ أَبَا زَيْدٍ، مِنْ أَيْنَ
أَقْبَلْتُ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتُ؟ وَمَتَى وَاقَيْتُ؟ وَهَلُمَّ إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ السَّوَادِيُّ: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَلَكِنِّي أَبُو عُبَيْدٍ،
فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ، وَأَبْعَدَ النَّسِيَانَ، أَنْسَانِيكَ طُولَ الْعَهْدِ، وَاتَّصَلَ الْبُعْدُ، فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ؟
أَشَابُ كَعَهْدِي، أَمْ شَابَ بَعْدِي؟ فَقَالَ: قَدْ بَتَّ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِي، وَأَرْجُو أَنْ يُصِيرَهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّتِي، فَقُلْتُ:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَمَدَدْتُ يَدَ الْبِدَارِ، إِلَى الصِّدَارِ، أُرِيدُ تَمْزِيْقَهُ، فَقَبِضَ السَّوَادِيُّ عَلَى خَصْرِي بِجَمْعِهِ، وَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللَّهُ لَا مَرْقَتَهُ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إِلَى الْيَتِّ نُصِبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتِرِ شِوَاءً، وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ، فَاسْتَفَزَّتْهُ حُمَةُ الْقَرَمِ، وَعَطَفَتْهُ عَاطِفَةُ اللَّقْمِ، وَطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْنَا شِوَاءً يَتَّقَطُرُ شِوَاؤُهُ عَرَقًا، وَتَسَايَلُ جُودَابَاتُهُ مَرَقًا، فَقُلْتُ: افِرْزْ لِأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذَا الشِّوَاءِ، ثُمَّ زَنَ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَلْوَاءِ، وَاخْتَرْتُ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَطْبَاقِ، وَانصَبْتُ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاقِ، وَرَشَّ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ مَاءِ السَّمَّاقِ، لِیَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، فَأَنْحَى الشِّوَاءَ بِسَاطِرِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَنْوَرِهِ، فَجَعَلَهَا كَالْكَحْلِ سَحْقًا، وَكَالطَّحْنِ دَقًّا، ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسْتُ، وَلَا يَبْسَ وَلَا يَبْسُتُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَا، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْحَلْوَى: زَنَ لِأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِ بِنِجِ رَطِّينَ فَهُوَ أَجْرَى فِي الْحُلُوقِ، وَأَمْضَى فِي الْعُرُوقِ، وَلِيَكُنْ لِيَلِّي الْعُمُرَ، يَوْمِي النَّشْرَ، رَفِيقَ الْقَشْرِ، كَثِيفَ الْحَشْوِ، لَوْلُوِي الدَّهْنِ، كَوَكِي اللَّوْنِ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ الْمَضْغِ، لِیَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، قَالَ: فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعَدْتُ، وَجَرَدَ وَجَرَدْتُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَا، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ مَا أَحْجَوْنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعِّشِعُ بِالنَّحْلِ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَةَ، وَيَفْتَأَ هَذِهِ اللَّقْمَ الْحَارَّةَ، اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نَأْتِيكَ بِسَقَاءٍ، يَأْتِيكَ بِشْرِبَةِ مَاءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوَادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشِّوَاءَ بِإِزَارِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ ثَمَنُ مَا أَكَلْتُ؟ فَقَالَ: أَبُو زَيْدٍ: أَكَلْتَهُ ضَيْفًا، فَلِكُمَهُ لِكْمَةٌ، وَتَنَى عَلَيْهِ بِلَطْمَةٍ، ثُمَّ قَالَ الشِّوَاءُ: هَاكَ، وَمَتَى دَعَوْتُكَ؟ زَنَ يَا أَخَا الْقِحَّةِ عِشْرِينَ، فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَحُلُّ عُقْدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ: كَمْ قُلْتُ لِدَاكِ الْقَرِيدِ، أَنَا أَبُو عَيْبِدٍ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ، فَأَنْشَدْتُ:

أَعْمِلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلِهِ ... لَا تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَةٍ
وَأَنْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... فَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَةَ
المَقَامَةُ البَصْرِيَّةُ

حَدَّثَنِي عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

دَخَلْتُ البَصْرَةَ وَأَنَا مِنْ سِنِّي فِي فِتَاءٍ، وَمِنَ الرِّبِّيِّ فِي حَبْرٍ وَوِشَاءٍ، وَمِنَ العِنْيِ فِي بَقَرٍ وَشَاءٍ، فَأَتَيْتُ المَرِيدَ فِي رُفْقَةٍ تَأْخُذُهُمُ العِيُونَ، وَمَشِينَا غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَى بَعْضِ تِلْكَ المُنْتَزَهَاتِ، فِي تِلْكَ المُنْجِهَاتِ، وَمَلَكْنَا أَرْضَ فَحَلَلْنَاهَا، وَعَمَدْنَا لِقِدَاحِ اللُّهُوِّ فَاجْلَلْنَاهَا، مُطَرِّحِينَ لِلْحِشْمَةِ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيْنَا إِلَّا مَنَّا، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعٍ مِنْ ارْتِدَادِ الطَّرْفِ حَتَّى عَنَّا لَنَا سِوَادٌ تَخْفُضُهُ وَهَادٌ، وَتَرْفَعُهُ نِجَادٌ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ يَهُمُّ بِنَا، فَأَتَلَعْنَا لَهُ، حَتَّى آدَاهُ إِلَيْنَا سِيرُهُ وَلَقِينَا بِنَحِيَّةِ الإِسْلَامِ، وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ مُقْتَضَى السَّلَامِ، ثُمَّ أَجَالَ فِيْنَا طَرْفَهُ وَقَالَ: يَا قَوْمُ مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ يَلْحَظُنِي شَرْرًا، وَيُوسِعُنِي حَزْرًا، وَمَا يُنْبِكُكُمْ عَنِّي، أَصَلِقُ مِنِّي، أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الإِسْكَانَدَرِيَّةِ مِنَ الشُّعُورِ الأَمْوِيَّةِ، قَدْ وَطَأَ لِي الفِضْلُ كَنَفَهُ، وَرَحَّبَ بِي عَيْشٌ، وَنَمَانِي يَتُّ، ثُمَّ جَعَجَعَ بِي الدَّهْرُ عَن ثَمَّةٍ وَرَمَّهُ، وَأَثَلَانِي زَعَالِي حُمَرَ الحَوَاصِلِ:

كَأَنَّهُمْ حَيَاتُ أَرْضٍ مَحَلَّةٍ ... فَلَوْ يَعْصُونَ لَدَكِّي سَمَّهُمْ
إِذَا تَرَلْنَا أَرْسَلُونِي كَاسِيًا ... وَإِنْ رَحَلْنَا رَكِبُونِي كُلهُمْ

وَنَشَرْتُ عَلَيْنَا الْيِضُ، وَشَمَسَتْ مِنَّا الصُّفْرُ، وَأَكَلْنَا السُّودُ، وَحَطَمْنَا الْحُمْرُ، وَأَتْنَا أَبُو مَالِكٍ، فَمَا يَلْقَانَا
أَبُو جَابِرٍ إِلَّا عَنِ عَفْرِ، وَهَذِهِ الْبَصْرَةُ مَاؤُهَا هَضُومٌ، وَفَقِيرُهَا مَهْضُومٌ، وَالْمَرْءُ مِنْ ضِرْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَمِنْ نَفْسِهِ
فِي كَلٍّ، فَكَيْفَ بَمَنْ:

يُطَوِّفُ مَا يُطَوِّفُ ثُمَّ يَأْوِي ... إِلَى زُعْبٍ مُحَدَّدَةِ الْعُيُونِ
كَسَاهُنَّ الْبَلَى شَعْنًا فَنَمْسِي ... جِيَاعَ النَّابِ ضَامِرَةَ الْبُطُونِ
وَلَقَدْ أَصْحَنَ الْيَوْمَ وَسَرَّحَنَ الطَّرْفَ فِي حَيِّ كَمَيْتٍ، وَبَيْتٍ كَلَّا بَيْتٍ، وَقَلْبَيْنِ الْأَكْفَ عَلَى لَيْتٍ، فَفَضَّضَنَ
عُقَدَ الصُّلُوعِ، وَأَفْضَنَ مَاءَ اللُّمُوعِ، وَتَدَاعَيْنِ بِاسْمِ الْجُوعِ.

وَالْفَقْرُ فِي زَمَنِ النَّا ... مِ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ عَلَامَةٌ
رَغِبَ الْكَرَامُ إِلَى النَّا ... مِ، وَتَلَّكَ أَشْرَاطُ الْقِيَامَةِ
وَلَقَدْ اخْتَرْتُمْ يَا سَادَةَ، وَدَلَّتْنِي عَلَيْكُمْ السَّعَادَةُ، وَقُلْتُ قَسَمًا، إِنَّ فِيهِمْ لَدَسَمًا، فَهَلْ مِنْ فَتَى يُعَشِّيهِنَّ، أَوْ
يُعَشِّيهِنَّ؟ وَهَلْ مِنْ حُرٍّ يُعَدِّيهِنَّ، أَوْ يُرَدِّيهِنَّ؟ قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ حِجَابِ سَمْعِي
كَلامَ رَائِعٍ أَبْرَعُ، وَأَرْفَعُ وَأَبْدَعُ، مِمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ، لِأَجْرَمَ أَنَا اسْتَمَحْنَا الْأَوْسَاطَ، وَنَفَضْنَا الْأَكْمَامَ، وَنَحِينَا
الْجُيُوبَ، وَتَلُّنُهُ أَنَا مُطْرَفِي، وَأَخَذْتُ الْجَمَاعَةَ إِخْدِي، وَقُلْنَا لَهُ: الْحَقُّ بِأَطْفَالِكَ، فَأَعْرَضَ عَنَّا بَعْدَ شُكْرِ وَقَاهُ،
وَنَشَرَ مَلَأَ بِهِ فَاهُ.

المقامة الفرزارية

حدثنا عيسى بن هشام قال:

كُنْتُ فِي بَعْضِ بِلَادِ فِرَازَةَ مُرْتَحِلًا نَجِيبَةً، وَقَائِدًا جَنِيبَةً، يَسْبَحَانِ بِي سَبْحًا، وَأَنَا أَهْمُ بِالْوَطَنِ، فَلَا اللَّيْلُ
يَشِينِي بِوَعِيدِهِ، وَلَا الْبُعْدُ يَلُونِي بِبِيدِهِ، فَظَلَلْتُ أَحْبَبْتُ وَرَقَ النَّهَارِ، بَعْصًا التَّسْيَارِ وَأَحْوَضُ بَطْنَ اللَّيْلِ،
بِحَوَافِرِ الْخَيْلِ، فَبَيْنَا أَنَا فِي لَيْلَةٍ يَضِلُّ فِيهَا الْعَطَاطُ، وَلَا يُبْصِرُ فِيهَا الْوَطَاطُ، أَسِيحُ سَيْحًا، وَلَا سَانِحُ إِلَّا
السَّبِيحُ، وَلَا بَارِحُ إِلَّا الضَّيِّعُ، إِذْ عَنَّ لِي رَاكِبٌ تَامُ الْإِلَاتِ، يَوْمُ الْأَثَلَاتِ، يَطْوِي إِلَى مَنْشُورِ الْعَلَوَاتِ،
فَأَخَذَنِي مِنْهُ مَا يَأْخُذُ الْأَعْرَلُ مِنْ شَاكِي السَّلَاحِ، لَكِنِّي تَجَلَدْتُ فَقُلْتُ: أَرْضُكَ لَا أُمَّ لَكَ، فَدُونَكَ شَرُّ
الْحِدَادِ، وَخَرُّطُ الْقَتَادِ، وَخَصْمُ صَخْمٍ، وَحَمِيَّةُ أَرْدِيَّةٍ، وَأَنَا سِلْمٌ إِنْ شِئْتَ، وَحَرْبٌ إِنْ أَرَدْتَ، فَقُلْتُ لِي: مَنْ
أَنْتَ؟ فَقَالَ: سِلْمًا أَصَبْتَ، فَقُلْتُ: خَيْرًا أَجَبْتَ، فَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: نَصِيحٌ إِنْ شَاوَرْتَ فَصِيحٌ إِنْ حَاوَرْتَ،
وَدُونَ إِسْمِي لِنَامٍ، لَا تُمِيطُهُ الْأَعْلَامُ، قُلْتُ: فَمَا الطُّعْمَةُ؟ قَالَ: أَحْجُوبُ جُيُوبِ الْبِلَادِ، حَتَّى أَفْعَ عَلَى جَفْنَةِ
جَوَادٍ، وَلِي فُؤَادٌ يَخْدُمُهُ لِسَانٌ، وَبَيَانٌ يَرْقُمُهُ بَنَانٌ وَقَصَارَايَ كَرِيمٌ يَخْفِضُ لِي جَنِيْبَتَهُ، وَيَنْفُضُ إِلَيَّ حَقِيْبَتَهُ،
كَابْنِ حُرَّةٍ طَلَعَ عَلَيَّ بِالْأَمْسِ، طُلُوعَ الشَّمْسِ، وَغَرَبَ عَنِّي بَعْرُوبَهَا، لَكِنَّهُ غَابَ وَلَمْ يَعْجُبْ تَذْكَارُهُ، وَوَدَّعَ
وَشَيَّعَنِي آثَارُهُ، وَلَا يُبْنِكُ عَنْهَا، أَقْرَبُ مِنْهَا، وَأَوْمًا إِلَى مَا كَانَ لِبَسِّهِ، فَقُلْتُ: شَحَاذٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ آخِذٌ، لَهُ
فِي الصَّنْعَةِ نَفَاذٌ، بَلْ هُوَ فِيهَا أُسْتَاذٌ، وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَرُشِحَ لَهُ، وَتَسِحَّ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا فَتَى قَدْ جَلَيْتَ
عِبَارَتِكَ، فَأَيْنَ شِعْرُكَ مِنْ كَلَامِكَ؟ فَقَالَ: وَأَيْنَ كَلَامِي مِنْ شِعْرِي؟ ثُمَّ اسْتَمَدَّ غَرِيْبَتَهُ، وَرَفَعَ عَقِيْرَتَهُ، بِصَوْتِ
مَلَأَ الْوَادِي، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَأَرَوَعْ أَهْدَاهُ لِي اللَّيْلُ وَالْفَلَاوَحْمَسُ تَمَسُّ الْأَرْضَ لَكِنْ كَلَا وَلَا
عَرَضَتْ عَلَيَّ نَارُ الْمَكَارِمِ عُودَهُ ... فَكَانَ مُعَمًّا فِي السِّيَادَةِ مُخَوَّلًا
وَخَادِعْتُهُ عَنْ مَالِهِ فَخَدَعْتُهُ ... وَسَاهَلْتُهُ مِنْ بَرِّهِ فَتَسَهَّلًا
وَلَمَّا تَجَالَيْنَا وَأَحْمَدَ مَنْطِقِيًّا بِي مِنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ بِمَا بَلَا
فَمَا هَزَّ إِلَّا صَارِمًا حِينَ هَزَّ يُولِمُ يَلْقَنِي إِلَّا إِلَى السَّبْقِ أَوْلَا
وَلَمْ أَرَهُ إِلَّا أَعْرَّ مُحَجَّلًا ... وَمَا تَحْتَهُ إِلَّا أَعْرَّ مُحَجَّلًا
فَقُلْتُ لَهُ: عَلَى رِسْلِكَ يَا فَتَى، وَلَكَ فِيمَا يَصْحَبُنِي حُكْمُكَ، فَقَالَ: الْحَقِيْبَةُ بِمَا فِيهَا، قُلْتُ: إِنَّ وَحَامِلَتَهَا،
ثُمَّ قَبَضْتُ بَجُمُعِي عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: لَا وَالَّذِي أَلْهَمَهَا لَمْسًا، وَشَقَّهَا مِنْ وَاحِدَةٍ خَمْسًا، لَا تُزَايِلْنِي أَوْ أَعْلَمَ
عَلِمَكَ، فَحَلَرَ لِنَامِهِ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ، فَمَا لَبِثْتُ أَنْ قُلْتُ:
تَوَشَّحْتَ أَبَا الْفَتْحِ ... بِهَذَا السَّيْفِ مُخْتَلًا
فَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ ... إِذَا لَمْ تَكُ فَتَالًا؟
فَصُغْ مَا أَتَتْ حَلِيَّتَ ... بِهِ سَيْفَكَ خَلْخَالًا
الْمَقَامَةُ الْجَاحِظِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: أَثَارَتْنِي وَرُفْقَةٌ وَكَلِيمَةٌ فَاجْتَبْتُ إِلَيْهَا، لِلْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَوْ دُعِيْتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ " فَأَفْضَى بِنَا السَّيْرُ إِلَى دَارِ.

تُرِكَتْ وَالْحُسْنَ تَأْخُذُهُ ... تَنْتَقِي مِنْهُ وَتَنْتَجِبُ
فَانْتَقَتْ مِنْهُ طَرَائِفُهُ ... وَاسْتَزَادَتْ بَعْضَ مَا تَهَبُ
قَدْ فُرِشَ بِسَاطِطِهَا، وَبُسِطَتْ أَنْمَاطُهَا، وَمُدَّتْ سِمَاطُهَا، وَقَوْمٌ قَدْ أَخَذُوا الْوَقْتَ بَيْنَ آسٍ مَخْضُودٍ، وَوَرْدٍ
مَنْضُودٍ، وَدَنٍّ مَفْضُودٍ، وَنَآيٍ وَعُودٍ، فَصَبَرْنَا إِلَيْهِمْ وَصَارُوا إِلَيْنَا، ثُمَّ عَكَفْنَا عَلَى خِوَانٍ قَدْ مُلِئَتْ حَيَاضُهُ،
وَوَبَّرَتْ رِيَاضُهُ، وَأَصْطَفَتْ جِفَانَهُ، وَاخْتَلَفَتْ أَلْوَانُهُ فَمِنْ حَالِكٍ بِإِزَائِهِ نَاصِعٌ، وَمِنْ قَانٍ تَلْقَاءَهُ فَاقِعٌ، وَمَعَنَا
عَلَى الطَّعَامِ رَجُلٌ نَسَافِرُ يَدُهُ عَلَى الْخِوَانِ، وَتَسْفِرُ بَيْنَ الْأَلْوَانِ، وَتَأْخُذُ وَجْوهَ الرُّعْفَانِ، وَتَفْقَأُ عُيُونَ الْجِفَانِ،
وَتَرَعَى أَرْضَ الْجِيرَانِ، وَتَجُولُ فِي الْقَصْعَةِ، كَالرُّحِّ فِي الرُّفْعَةِ، يَزْحَمُ بِاللُّقْمَةِ اللُّقْمَةَ، وَيَهْزِمُ بِالْمُضْغَةِ الْمُضْغَةَ،
وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ سَاكِتٌ لَا يَنْبَسُ بِحَرْفٍ، وَنَحْنُ فِي الْحَدِيثِ نَجْرِي مَعَهُ، حَتَّى وَقَفَ بِنَا عَلَى ذِكْرِ الْجَاحِظِ
وَخَطَابَتِهِ، وَوَصَفِ ابْنِ الْمُقَفِّعِ وَذَرَابَتِهِ، وَوَأْفَقَ أَوَّلَ الْحَدِيثِ آخِرَ الْخِوَانِ، وَزُلْنَا عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ، فَقَالَ
الرَّجُلُ: أَيْنَ أَنْتُمْ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ؟ فَأَخَذْنَا فِي وَصْفِ الْجَاحِظِ وَلَسْنِهِ، وَحُسْنِ سَنَنِهِ فِي الْفَصَاحَةِ
وَسَنَنِهِ، فِيمَا عَرَفْنَاهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمَ لِكُلِّ عَمَلٍ رَجَالٌ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلِكُلِّ دَارٍ سُكَّانٌ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ
جَاحِظٌ، وَلَوْ ائْتَقَدْتُمْ، لَبَطَلَّ مَا ائْتَقَدْتُمْ، فَكُلُّ كَشْرٍ لَهُ عَنْ نَابِ الْإِنْكَارِ، وَأَشْمُ بَأْتَفِ الْإِكْبَارِ، وَضَحِكْتُ لَهُ
لَأَجْلَبَ مَا عِنْدَهُ، وَقُلْتُ: أَفِدْنَا وَزِدْنَا، فَقَالَ: إِنَّ الْجَاحِظَ فِي أَحَدٍ شَقِيٌّ الْبَلَاغَةَ يَقْطِفُ، وَفِي الْآخَرِ يَقْفُ،
وَالْبَلِيغُ مَنْ لَمْ يَقْصُرْ نَظْمُهُ عَنْ نَثْرِهِ، وَلَمْ يُزِرْ كَلَامُهُ بِشِعْرِهِ، فَهَلْ تَرَوُونَ لِلْجَاحِظِ شِعْرًا رَائِعًا؟ قُلْنَا: لَا،
قَالَ: فَهَلُمُّوا إِلَيَّ كَلَامِهِ، فَهُوَ بَعِيدُ الْإِشَارَاتِ، قَلِيلُ الْاسْتِعَارَاتِ، قَرِيبُ الْعِبَارَاتِ، مُتَقَادُ لَعْرِيَانِ الْكَلَامِ

يَسْتَعْمِلُهُ، تُقُورُ مِنْ مُعْتَاصِهِ يُهْمَلُهُ، فَهَلْ سَمِعْتُمْ لَهُ لَفْظَةً مَصْنُوعَةً، أَوْ كَلِمَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ؟ فَقُلْنَا: لَا، فَقَالَ:
هَلْ تُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يُخَفِّفُ عَنْ مَنْكِبَيْكَ، وَيَنْمُ عَلَيَّ مَا فِي يَدَيْكَ؟ فَقُلْتُ: إِي وَاللَّهِ، قَالَ:
فَأُطْلِقُ لِي عَنْ خِنْصِرِكَ، بِمَا يُعِينُ عَلَيَّ شُكْرِكَ، فَنُلْتُهُ رِدَائِي، فَقَالَ:
لَعَمْرُ الَّذِي أَلْقَى عَلَيَّ ثِيَابَهُلَقَدْ حُشِيتَ تِلْكَ الثِّيَابُ بِهِ مَجْدًا
فَتَى قَمَرَتُهُ الْمَكْرَمَاتُ رِدَائِهِ ... وَمَا ضَرَبْتَ قِدْحًا وَلَا نَصَبْتَ نَرْدًا
أَعِدْ نَظْرًا يَا مَنْ حَبَانِي ثِيَابَهُ ... وَلَا تَدَعِ الْأَيَّامَ تَهْدِمُنِي هَذَا
وَقُلْ لِلأُولَى إِنْ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا ضُحَى وَإِنْ طَلَعُوا فِي غَمَّةٍ طَلَعُوا سَعْدًا
صَلُّوا رَحِمَ الْعَلِيَا، وَبُلُّوا لَهَا نَهَا فَخَيْرُ النَّدَى مَا سَحَّ وَابَلُهُ نَقْدًا
قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَارْتَا حَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَيْهِ، وَأَثَالَتِ الصَّلَاتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ لَمَّا تَأَنَسْنَا: مِنْ أَيْنَ مَطَّلَعُ هَذَا
الْبَدْرُ؟ فَقَالَ:

إِسْكَندَرِيَّةٌ دَارِي ... لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي
لَكِنَّ لَيْلِي بِنَجْدٍ ... وَبِالْحِجَازِ نَهَارِي.
الْمَقَامَةُ الْمَكْهُوفِيَّةُ
حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

كُنْتُ أَجْتَاؤُ، فِي بَعْضِ بِلَادِ الْأَهْوَازِ، وَقُصَارَايَ لَفْظَةً شَرُودٌ أَصِيدُهَا، وَكَلِمَةً بَلِيغَةٌ أَسْتَرِيدُهَا، فَادَّانِي السَّيْرُ
إِلَى رُقْعَةٍ فَسِيحَةٍ مِنَ الْبَلَدِ، وَإِذَا هُنَاكَ قَوْمٌ مُجْتَمِعُونَ عَلَى رَجُلٍ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَخْبِطُ الْأَرْضَ بَعْصًا
عَلَى إِيقَاعٍ لَا يَخْتَلِفُ، وَعَلِمْتُ أَنَّ مَعَ الْإِيقَاعِ لِحْنًا، وَلَمْ أَبْعُدْ لِأَنَالَ مِنَ السَّمَاعِ حَظًّا، أَوْ أَسْمَعَ مِنْ
الْفَصِيحِ لَفْظًا، فَمَا زِلْتُ بِالنَّظَارَةِ أَزْحَمُ هَذَا وَأَدْفَعُ ذَاكَ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى الرَّجُلِ، وَسَرَّحْتُ الطَّرْفَ مِنْهُ إِلَى
حُرْقَةٍ كَالْقَرْنِيِّ أَعْمَى مَكْهُوفٍ، فِي شِمْلَةٍ صُوفٍ، يَدُورُ كَالْحُلُرُوفِ، مُتَبَرِّسًا بِأَطْوَلِ مِنْهُ، مُعْتَمِدًا عَلَى عَصَا
فِيهَا جَلَّاجِلٌ يَخْبِطُ الْأَرْضَ بِهَا عَلَى إِيقَاعٍ غَنَجٍ، بِلَحْنٍ هَزِجٍ، وَصَوْتٍ شَجٍّ، مِنْ صَنْدِرٍ حَرَجٍ، وَهُوَ يَقُولُ:
يَا قَوْمُ قَدْ أَثْقَلْتُ دَيْنِي ظَهْرِي ... وَطَالَبَتْنِي طَلْتِي بِالْمَهْرِ
أَصْبَحْتُ مِنْ بَعْدُ غَنِيٌّ وَوَفِرٍ ... سَاكِنٌ قَفْرٍ وَحَلِيفَ قَفْرٍ
يَا قَوْمُ هَلْ بَيْنَكُمْ مِنْ حُرٍّ ... يُعِينُنِي عَلَى صُرُوفِ الدَّهْرِ
يَا قَوْمُ قَدْ عِيلَ لِفَقْرِي صَبْرِي ... وَأُنْكَشَفْتُ عَنِّي ذُبُولُ السِّتْرِ
وَفَضَّ ذَا الدَّهْرِ بِأَيْدِي الْبَتْرِ ... مَا كَانَ بِي مِنْ فِضَّةٍ وَتَبْرِ
أَوِي إِلَى بَيْتِ كَفِيدِ شَبْرِ ... خَامِلَ قَدْرٍ وَصَغِيرَ قَدْرِ
لَوْ خَتَمَ اللَّهُ بِخَيْرٍ أَمْرِي ... أَعَقَبَنِي عَنْ عَسْرِ بَيْسْرِ
هَلْ مِنْ فَتَى فِيكُمْ كَرِيمِ النَّجْرِ ... مُحْتَسِبٍ فِي عَظِيمِ الْأَجْرِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ مُعْتَمِدًا لِلشُّكْرِ؟ قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَرَّقَ لَهُ وَاللَّهِ قَلْبِي، وَاعْرَوْرَقَتْ لَهُ عَيْنِي، فَنُلْتُهُ دِينَارًا كَانَ
مَعِي، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَالَ:

يا حُسْنَهَا فاقِعَةٌ صَفْرَاءُ ... مَمْشُوقَةٌ مَنفُوشَةٌ قَوْرَاءُ
يَكَادُ أَنْ يَطْرُقَ مِنْهَا الْمَاءُ ... قَدْ أَثْمَرَتْهَا هِمَّةٌ عَلِيَاءُ
نَفْسٌ فَتَى يَمْلِكُ السَّخَاءُ ... يَصْرِفُهُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ
يا ذَا الَّذِي يَعْنِيهِ ذَا النَّاءُ ... ما يَتَقَصَّى قَدْرَكَ الإِطْرَاءُ

امضِ إِلَى اللَّهِ لِكَ الْجِزَاءِ وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ شَدَّهَا فِي قَرْنٍ مِثْلِهَا، وَأَنْسَهَا بِأَخْتِهَا، فَتَالَهُ النَّاسُ مَا نَالُوهُ، ثُمَّ
فَارَقَهُمْ وَتَبِعْتَهُ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مُتَعَامٍ، لِسُرْعَةِ مَا عَرَفَ الدَّيْنَارَ، فَلَمَّا نَظَمْتَنَا خَلْوَةً، مَدَدَتْ يُمْنَايَ إِلَى يُسْرَى
عَضُدِيهِ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَتُرِيَنِي سِرِّكَ، أَوْ لَأَكْشِفَنَّ سِرِّكَ، فَفَتَحَ عَن تَوَامَتِي لَوْزٍ، وَحَدَرْتُ لِثَامَهُ عَن وَجْهِهِ،

فَإِذَا وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَنَدَرِيُّ، فَقُلْتُ: أَنْتَ أَبُو الْفَتْحِ؟ فَقَالَ: لَا
أَنَا أَبُو قَلْمُونٍ ... فِي كُلِّ لَوْنٍ أَكُونُ

أَحْتَرُّ مِنَ الْكَسْبِ دُونًا ... فَإِنَّ دَهْرَكَ دُونُ

زَجِّ الزَّمَانِ بِحُمُقٍ ... إِنَّ الزَّمَانَ زُبُونُ

لَا تُكَذِّبَنَّ بِعَقْلِ ... مَا الْعَقْلُ إِلَّا الْجُنُونُ

الْمَقَامَةُ الْبُخَارِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

أَحْلَنِي جَامِعُ بُخَارَى يَوْمٌ وَقَدْ انْتَضَمْتُ مَعَ رِفْقَةٍ فِي سِمَطِ الثَّرِيَّا، وَحِينَ احْتَفَلَ الْجَامِعُ بِأَهْلِهِ طَلَعَ إِلَيْنَا دُو
طِمْرِينَ قَدْ أَرْسَلَ صَوَانًا، وَاسْتَلَى طِفْلًا غُرِيَانًا، يَضِيْقُ بِالضَّرِّ وَسُعُهُ، وَيَأْخُذُهُ الْقُرُّ وَيَدْعُهُ، لَا يَمْلِكُ غَيْرَ
الْقِشْرَةِ بُرْدَةٍ، وَلَا يَكْفِي لِحِمَايَةِ رِعْدَةٍ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ وَقَالَ: لَا يَنْظُرُ لِهَذَا الطِّفْلِ إِلَّا مِنَ اللَّهِ طِفْلُهُ، وَلَا يَرِقُّ
لِهَذَا الضَّرِّ إِلَّا مَنْ لَا يَأْمُنُ مِثْلَهُ، يَا أَصْحَابَ الْجُدُودِ الْمَفْرُوزَةِ، وَالْأَرْدِيَةِ الْمُطْرُوزَةِ، وَالذُّورِ الْمُتَجَدِّدَةِ، وَالْقُصُورِ
الْمَشِيدَةِ، إِنَّكُمْ لَنْ تَأْمِنُوا حَادِثًا، وَلَنْ تَعْدُمُوا وَاثِنًا، فَبَادِرُوا الْخَيْرَ مَا أَمَكْنَ، وَأَحْسِنُوا مَعَ الدَّهْرِ مَا أَحْسَنَ،
فَقَدْ وَاللَّهِ طَعَمْنَا السَّكْبَاجَ، وَرَكِبْنَا الْهَمْلَاجَ، وَكَبِسْنَا الدِّيَبَاجَ، وَافْتَرَشْنَا الْحَشَايَا، بِالْعِشَايَا، فَمَا رَاعَنَا إِلَّا
هُوبُ الدَّهْرِ بَعْدَرِهِ، وَانْقِلَابُ الْمَجْنِّ لَطْهَرِهِ، فَعَادَ الْهَمْلَاجُ قَطُوفًا، وَانْقَلَبَ الدِّيَبَاجُ صُوفًا، وَهَلُمَّ جَرًّا إِلَى مَا
تُشَاهِدُونَ مِنْ حَالِي وَرَبِّي، فَهَا نَحْنُ نَرْتَضِعُ مِنَ الدَّهْرِ تَدْيَ عَقِيمٍ، وَنَرْتَكِبُ مِنَ الْفَقْرِ ظَهْرَ بَهِيمٍ، فَلَا نَرْتَوِ إِلَّا
بِعَيْنِ الْيَتِيمِ، وَلَا نَمُدُّ إِلَّا يَدَ الْعَدِيمِ، فَهَلْ مِنْ كَرِيمٍ يَجْلُو غِيَابَ هَذِهِ الْبُؤُوسِ، وَيَقْلُ شَبَابَ هَذِهِ التُّحُوسِ؟ ثُمَّ
قَعَدَ مُرْتَفِقًا وَقَالَ لِلطِّفْلِ: أَنْتَ وَشَأْنُكَ، فَقَالَ: مَا عَسَى أَنْ أَقُولَ وَهَذَا الْكَلَامُ لَوْ لَقِي الشَّعْرَ لِحَلْفَهُ، أَوْ
الصَّخْرَ لِحَلْفَهُ، وَإِنَّ قَلْبًا لَمْ يُنْضِجْهُ مَا قُلْتَ لَنِي، وَقَدْ سَمِعْتُمْ يَا قَوْمُ، مَا لَمْ تَسْمَعُوا قَبْلَ الْيَوْمِ، فَلْيَشْغَلْ كُلُّ
مِنْكُمْ بِالْجُودِ يَدَهُ، وَيَلْدِكُرْ غَدَهُ، وَاقْيَا بِي وَلَدَهُ، وَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ، وَأَعْطُونِي أَشْكُرْكُمْ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَمَا آتَسَنِي فِي وَحْدَتِي إِلَّا خَاتَمُ خَتَمَتْ بِهِ خِنْصَرَهُ، فَلَمَّا تَنَاوَلَهُ أَنْشَأَ يَصِفُ الْخَاتَمَ
عَلَى الْإِصْبَعِ، وَجَعَلَ يَقُولُ:

وَمُمنَطِقٍ مِنْ نَفْسِهِ ... بِقِلَادَةِ الْجُوزَاءِ حُسْنًا

كَمْتِيمٍ لَقِي الْحَبِي ... بَ فَضَمَّهُ شَعْفًا وَحُرْنَا

مُتَأَلِّفٍ مِنْ غَيْرِ أَسْ ... رَبِّهِ عَلَى الْيَّامِ حِدَانَا
عَلَّقْ سَنِيَّ قَدْرَهُ ... لَكِنَّ مَنْ أَهْدَاهُ أَسْنَى
أَقْسَمْتُ لَوْ كَانَ الْوَرَى ... فِي الْمَجْدِ لَفُظًا كُنْتُ مَعْنَى

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَنَلْنَاهُ مَا تَاحَ لَنَا مِنَ الْفَوْرِ، فَأَعْرَضَ عَنَّا، حَامِدًا لَنَا، فَتَبِعْتُهُ حَتَّى سَفَرْتَ الْخَلْوَةَ عَنْ
وَجْهِهِ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ، وَإِذَا الطَّلَا زُعْلُولُهُ، فَقُلْتُ:
أَبَا الْفَتْحِ شَيْتَ، وَشَبَّ الْغُلَامُ ... فَأَيْنَ السَّلَامُ، وَأَيْنَ الْكَلَامُ؟
فَقَالَ:

غَرِيبًا إِذَا جَمَعْتَنَا الطَّرِيقَ أَلَيْفًا إِذَا نَظَمْتَنَا الْحِيَامُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَكْرَهُ مُحَاطَبَتِي، فَتَرَكَتُهُ وَانصَرَفْتُ.
المَقَامَةُ الْقَرْوِينِيَّةُ
حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

غَزَوْتُ النَّغَرَ بَقْرَوَيْنَ، سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، فِيمَنْ غَزَاهُ، فَمَا أَجَزْنَا حَزْنَا، إِلَّا هَبَطْنَا بَطْنًا، حَتَّى وَقَفَ الْمَسِيرُ
بِنَا عَلَى بَعْضِ قَرَاهَا، فَمَالَتِ الْهَاجِرَةُ بِنَا إِلَى ظِلِّ أَثْلَاطٍ، فِي حُجْرَتِهَا عَيْنٌ كَلِسَانَ الشَّمْعَةِ، أَصْفَى مِنَ الدَّمْعَةِ،
تَسِيحُ فِي الرِّضْرَاضِ سِيحَ النَّضْنِاضِ، فَنَلْنَا مِنَ الطَّعَامِ مَا نَلْنَا، ثُمَّ مَلْنَا إِلَى الظِّلِّ فَقَلْنَا، فَمَا مَلَكْنَا التَّوْمَ حَتَّى
سَمِعْنَا صَوْتًا أَكْرَمَ مِنْ صَوْتِ حِمَارٍ، وَرَجَعَا أَضْعَفَ مِنْ رَجْعِ الْخُورِ، يَشْفَعُهُمَا صَوْتُ طَبَلٍ كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ مَا
ضِعْفِي أَسَدٍ، فَدَادَ عَنِ الْقَوْمِ رَائِدَ التَّوْمِ، وَفَتَحَتْ التَّوَامَتَيْنِ إِلَيْهِ وَقَدْ حَالَتِ الْأَشْجَارُ دُونَهُ، وَأَصْغَيْتُ فَإِذَا هُوَ
يَقُولُ، عَلَى إِيقَاعِ الطُّبُولِ:

أَدْعُو إِلَى اللَّهِ فَهَلْ مِنْ مُجِيبٍ ... إِلَيَّ ذَرًّا رَحْبٍ وَمَرَعَى خَصِيبٍ
وَجَنَّةٍ عَالِيَةٍ مَا تَنِي ... قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ مَا تَغِيبُ
يَاقَوْمُ إِنِّي رَجُلٌ تَائِبٌ ... مِنْ بَلَدِ الْكُفْرِ وَأَمْرِي عَجِيبُ
إِنْ أَكَّ أَمَّتْ فَكَمْ لَيْلَةٌ ... جَحَدْتُ رَبِّي وَأَتَيْتُ الْمُرِيبُ
يَا رَبَّ حِنْزِيرٍ تَمَشَّشْتُهُ ... وَمُسْكَرٍ أَحْرَزْتُ مِنْهُ النَّصِيبُ
ثُمَّ هَدَانِي اللَّهُ وَأَنْتَاشِي ... مِنْ ذِلَّةِ الْكُفْرِ اجْتِهَادُ الْمُصِيبُ
فَظَلْتُ أَخْفِي الدِّينَ فِي أَسْرَتِي ... وَأَعْبُدُ اللَّهَ بِقَلْبٍ مُنِيبُ
أَسْجُدُ لِلَّاتِ حِذَارَ الْعِدَى ... وَلَا أَرَى الْكَعْبَةَ خَوْفَ الرَّقِيبُ
وَأَسْأَلُ اللَّهَ إِذَا جَنَنِي ... لَيْلٌ وَأَضْنَانِي يَوْمٌ عَصِيبُ
رَبِّ كَمَا أَنَّكَ أَنْقَذْتَنِي ... فَتَجَنَّنِي إِنِّي فِيهِمْ غَرِيبُ
ثُمَّ اتَّخَذْتُ اللَّيْلَ لِي مَرْكَبًا ... وَمَا سِوَى الْعِزْمِ أَمَامِي جَنِيبُ
فَقَدْكَ مِنْ سِرِّي فَشِي لَيْلَةٌ ... يَكَادُ رَأْسُ الطِّفْلِ فِيهَا يَشِيبُ
حَتَّى إِذَا جُرْتُ بِلَادَ الْعِدَى ... إِلَى حِمَى الدِّينِ نَفَضْتُ الْوَجِيبُ
فَقُلْتُ: إِذْ لَاحَ شِعَارُ الْهُدَى ... نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبُ

فَمَا بَلَغَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ: يَا قَوْمُ وَطِئْتُ دَارَكُمْ بَعَزْمٍ لَا الْعِشْقُ شَاقُهُ، وَلَا الْفَقْرُ سَاقُهُ، وَقَدْ تَرَكْتُ وَرَاءَ
 ظَهْرِي حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا، وَكَوَاعِبَ أَثْرَابًا، وَخَيْلًا مُسَوِّمَةً، وَقَنَاطِيرَ مُقَنْطَرَةً، وَعِدَّةً وَعَدِيدًا، وَمَرَكَبَ وَعَيْدًا،
 وَخَرَجْتُ خُرُوجَ الْحَيَّةِ مِنْ جُحْرِهَا، وَبَرَزْتُ بُرُوزَ الطَّائِرِ مِنْ وَكْرِهِ، مُؤَثِّرًا دِينِي عَلَى دُنْيَايَ، جَامِعًا يُمْنَايَ إِلَى
 يُسْرَايَ، وَأَصِلًا سِرِّي يُسْرَايَ، فَلَوْ دَفَعْتُمُ النَّارَ بِشَرَارِهَا، وَرَمَيْتُمُ الرُّومَ بِحِجَارِهَا، وَأَعْتَمُونِي عَلَى غَزْوِهَا،
 مُسَاعِدَةً وَإِسْعَادًا، وَمُرَافِدَةً وَإِرْفَادًا وَلَا شَطَطَ فَكُلُّ عَلَى قَدْرِ قُدْرَتِهِ، وَحَسَبُ ثَرْوَتِهِ، وَلَا أَسْتَكْثِرُ الْبَدْرَةَ،
 وَأَقْبِلُ الدَّرَّةَ، وَلَا أَرُدُّ التَّمْرَةَ، وَلِكُلِّ مَنِّي سَهْمَانٍ: سَهْمٌ أَدْلَقُهُ لِلْقَاءِ وَآخَرٌ أُفَوِّقُهُ بِالْدُّعَاءِ، وَأَرْشُقُ بِهِ أَبْوَابَ
 السَّمَاءِ، عَنِ قَوْسِ الظُّلْمَاءِ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَاسْتَفْزَنِي رَائِعُ الْأَفَاظِهِ، وَسَرَوْتُ جَلْبَابَ التَّوَمِ، وَعَدَوْتُ إِلَى الْقَوْمِ، فَإِذَا وَاللَّهِ شَيْخُنَا
 أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ بِسَيْفٍ قَدْ شَهَرَهُ، وَزِيٍّ قَدْ نَكَرَهُ، فَلَمَّا رَأَى عَمَزَنِي بَعَيْنِهِ، وَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَعَانَنَا
 بِفَاضِلِ ذَيْلِهِ، وَقَسَمَ لَنَا مِنْ نَيْلِهِ، ثُمَّ أَخَذَ مَا أَخَذَ، وَخَلَوْتُ بِهِ فَقُلْتُ: أَأَتَتْ مِنْ أَوْلَادِ النَّبِيِّ؟ فَقَالَ:

أَنَا حَالِي مِنَ الزَّمَا ... نِ كَحَالِي مَعَ النَّسَبِ
 نَسَبِي فِي يَدِ الزَّمَا ... نِ إِذَا سَامَهُ انْقَلَبَ
 أَنَا أَمْسِي مِنَ النَّبِيِّ ... طِ وَأُضْحِي مِنَ الْعَرَبِ
 الْمَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: أَحَلَّتْنِي دِمَشْقَ بَعْضِ أَسْفَارِي، فَبَيْنَا أَنَا يَوْمًا عَلَى بَابِ دَارِي، إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ مِنْ
 بَنِي سَاسَانَ كَنِيبَةً قَدْ لَفُوا رُؤُوسَهُمْ، وَصَلَوْا بِالْمَعْرَةِ لِبُوسَتِهِمْ، وَتَأَبَّطَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَجْرًا يَدُقُّ بِهِ صَدْرَهُ،
 وَفِيهِمْ زَعِيمٌ لَهُمْ يَقُولُ وَهُمْ يُرَاسِلُونَهُ، وَيَدْعُو وَيُجَاوِبُونَهُ، فَلَمَّا رَأَى قَالَ:

أُرِيدُ مِنْكَ رَغِيْفًا ... يَعْלו خُوَانًا نَظِيْفًا
 أُرِيدُ مِلْحًا جَرِيْشًا ... أُرِيدُ بَقْلًا قَطِيْفًا
 أُرِيدُ لَحْمًا غَرِيضًا ... أُرِيدُ خَلًّا تَقِيْفًا
 أُرِيدُ جَدِيًّا رَضِيْعًا ... أُرِيدُ سَخْلًا خَرُوْفًا
 أُرِيدُ مَاءً بَشَلَجٍ ... يَغْشَى إِنَاءً طَرِيْفًا
 أُرِيدُ دَنًّا مُدَامٍ ... أَقُوْمُ عَنْهُ نَزِيْفًا
 وَسَاقِيًّا مُسْتَهْشَأً ... عَلَى الْقُلُوبِ خَفِيْفًا
 أُرِيدُ مِنْكَ قَمِيصًا ... وَجُبَّةً وَنَصِيْفًا
 أُرِيدُ نَعْلًا كَنِيْفًا ... بِهَا أَزُوْرُ الْكَنِيْفًا
 أُرِيدُ مُشْطًا وَمَوْسَى ... أُرِيدُ سَطْلًا وَلِيْفًا
 يَا حَبِيْدًا أَنَا ضِيْفًا ... لَكُمْ وَأَنْتَ مُضِيْفًا
 رَضِيْتُ مِنْكَ بِهَذَا ... وَلَمْ أَرِدْ أَنْ أَحِيْفًا

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَلَنُتَّهُ دِرْهَمًا، وَقُلْتُ لَهُ: قَدْ آذَنْتُ بِالِدَّعْوَةِ وَسَعِدْتُ وَنَسَعِدْتُ، وَنَجَّهْتُ وَنَجِدْتُ، وَكَلَّ

عَلَيْنَا الْوَعْدُ مِنْ بَعْدُ، وَهَذَا الدَّرْهَمُ تَذْكَرَةٌ مَعَكَ، فَخُذِ الْمُنْقُودَ، وَانْتَظِرِ الْمَوْعُودَ، فَأَخَذَهُ وَصَارَ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ
ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَلْقَاهُ بِمِثْلِ مَا لَقَيْتَنِي، فَقَالَ:

يَا فَاضِلاً قَدْ تَبَدَّى ... كَأَنَّهُ الْغُصْنُ قَدَاً

قَدْ اشْتَهَى اللَّحْمُضُ ضِرْسِي ... فَاجْلِدْهُ بِالْحَبِزِ جَلْدَاً

وَأَمْنُ عَلِيٍّ بِشِيءٍ ... وَاجْعَلْهُ لِلْوَقْتِ نَقْدَاً

أَطْلِقْ مِنَ الْيَدِ حَصْرًا ... وَاحْلُلْ مِنَ الْكَيْسِ عَقْدَاً

وَاضْمُمْ يَدَيْكَ لِأَجْلِي ... إِلَى جَنَاحِكَ عَمْدَاً

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَلَمَّا فَتَقَ سَمِعِي مِنْهُ هَذَا الْكَلَامَ، عَلِمْتُ أَنَّ وِرَاعَهُ فَضْلًا، فَتَبِعْتُهُ حَتَّى صَارَ إِلَى أُمَّ
مَنْوَاهُ، وَوَقَفْتُ مِنْهُ بِحَيْثُ لَا يَرَانِي وَأَرَاهُ، وَأَمَاطَ السَّادَةَ لُثْمَهُمْ، فَإِذَا زَعِيمُهُمْ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ،
فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الْحِيلَةُ وَيَحْكُ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

هَذَا الزَّمَانُ مَشُومٌ ... كَمَا تَرَاهُ عَشُومٌ

الْحُمُقُ فِيهِ مَلِيحٌ ... وَالْعَقْلُ عَيْبٌ وَوَلُومٌ

وَالْمَالُ طَيْفٌ، وَلَكِنْ ... حَوْلَ النَّوَامِ يَحُومٌ

الْمَقَامَةُ الْقَرْدِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

بَيْنَا أَنَا بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، قَافِلًا مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، أَمِيسُ مَيْسَ الرَّجُلَةِ، عَلَى شَاطِئِ الدَّجَلَةِ، أَتَأَمَّلُ تِلْكَ الطَّرَائِفَ،

وَأَتَقَصَّى تِلْكَ الرَّخَائِفَ، إِذْ انْتَهَيْتُ إِلَى حَلْقَةِ رَجُلٍ مُزْدَحِمِينَ يَلُوي الطَّرْبُ أَعْنَاقَهُمْ، وَيَسْتَقُ الضَّحْكَ

أَشْدَاقَهُمْ، فَسَاقَنِي الْحَرِصُ إِلَى مَا سَاقَهُمْ، حَتَّى وَقَفْتُ بِمَسْمَعِ صَوْتِ رَجُلٍ ذُونَ مَرَايَ وَجْهِهِ لِشِلَّةِ الْمَهْجَمَةِ

وَفَرَطِ الرَّحْمَةِ، فَإِذَا هُوَ قَرَادٌ يُرْقِصُ قَرْدَهُ، وَيُضْحِكُ مِنْ عِنْدِهِ، فَرَقِصْتُ رَقِصَ الْمَحْرَجِ، وَسِرْتُ سَيْرَ

الْأَعْرَجِ، فَوْقَ رِقَابِ النَّاسِ يَلْفِظُنِي عَاتِقُ هَذَا لِسْرَةٍ ذَاكَ، حَتَّى افْتَرَشْتُ لِحْيَةَ رَجُلَيْنِ، وَقَعَدْتُ بَعْدَ الْإَيْنِ،

وَقَدْ أَشْرَفَنِي الْحَجَلُ بَرِيقِهِ، وَأَرَهَقَنِي الْمَكَانُ بِضِيْقِهِ، فَلَمَّا فَرَعَ الْقَرَادُ مِنْ شُغْلِهِ، وَانْتَفَضَ الْمَجْلِسَ عَنْ أَهْلِهِ،

قُمْتُ وَقَدْ كَسَانِي الدَّهْشُ حُلَّتَهُ، وَوَقَفْتُ لِأَرَى صُورَتَهُ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ، فَقُلْتُ: مَا

هَذِهِ الدَّنَاءَةُ وَيَحْكُ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

الدَّنْبُ لِلْأَيَّامِ لَا لِي ... فَاعْتَبْ عَلَيَّ صَرَفَ اللَّيَالِي

بِالْحُمُقِ أَذْرَكْتُ الْمُنَى ... وَرَقَلْتُ فِي حُلَلِ الْجَمَالِ

الْمَقَامَةُ الْمُوصِلِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

لَمَّا قَفَلْنَا مِنَ الْمُوصِلِ، وَهَمَمْنَا بِالْمَنْزَلِ، وَمُلِكْتَ عَلَيْنَا الْقَافِلَةَ، وَأَخَذَ مِنَّا الرَّحْلُ وَالرَّاحِلَةُ، جَرَتْ بِي

الْحُشَّاشَةُ إِلَى بَعْضِ قُرَاهَا، وَمَعِيَ الْإِسْكَانْدَرِيُّ أَبُو الْفَتْحِ، فَكُلْتُ: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ الْحِيلَةِ؟ فَقَالَ: يَكْفِيكَ اللَّهُ، وَدَفَعْنَا

إِلَى دَارٍ قَدْ مَاتَ صَاحِبُهَا، وَقَامَتْ نَوَادِبُهَا، وَاحْتَفَلَتْ بِقَوْمٍ قَدْ كَوَى الْجَزْعُ قُلُوبَهُمْ، وَشَقَّتِ الْفَجِيعَةُ

جِيؤُ بِهِمْ، وَنِسَاءٌ قَدْ نَشَرْنَ شَعُورَهُنَّ، يَضْرِبْنَ صُدُورَهُنَّ، وَشَدَدْنَ عَقُودَهُنَّ، يَلْطَمْنَ خُدُودَهُنَّ، فَقَالَ
الإِسْكَندَرِيُّ: لَنَا فِي هَذَا السَّوَادِ نَخْلَةٌ، وَفِي هَذَا الْقَطِيعِ سَخْلَةٌ، وَدَخَلَ الدَّارَ لِيَنْظُرَ إِلَى الْمَيْتِ وَقَدْ شُدَّتْ
عَصَابَتُهُ لِيُنْقَلَ، وَسُخِّنَ مَاءُوهُ لِيُغْسَلَ، وَهَيَّيْ تَابُوتَهُ لِيُحْمَلَ، وَخَيْطَتْ أَثْوَابُهُ لِيُكْفَنَ، وَحَفَرَتْ حَفْرَتُهُ لِيُدْفَنَ،
فَلَمَّا رَأَى الإِسْكَندَرِيُّ أَخَذَ حَلَقَهُ، فَجَسَّ عِرْقَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمَ اتَّقُوا اللَّهَ لَا تَدْفِنُوهُ فَهُوَ حَيٌّ، وَإِنَّمَا عَرَّتُهُ بِهَيْتَةٍ،
وَعَلَنَتُهُ سَكَنَةً، وَأَنَا أُسَلِّمُهُ مَفْتُوحَ الْعَيْنَيْنِ، بَعْدَ يَوْمَيْنِ، فَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ
بَرَدَ اسْتِنْتُهُ، وَهَذَا الرَّجُلُ قَدْ لَمَسْتُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ حَيٌّ، فَجَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي اسْتِنْتِهِ، فَقَالُوا: الأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَ،
فَأَفْعَلُوا كَمَا أَمَرَ، وَقَامَ الإِسْكَندَرِيُّ إِلَى الْمَيْتِ، فَزَنَعَ ثِيَابَهُ ثُمَّ شَدَّ لَهُ الْعِمَائِمَ، وَعَلَّقَ عَلَيْهِ تَمَائِمَ، وَالْعَقَّةَ
الزَّيْتِ، وَأَخْلَى لَهُ الْبَيْتَ، وَقَالَ: دَعُوهُ وَلَا تُرَوِّعُوهُ، وَإِنْ سَمِعْتُمْ لَهُ أُنِينًا فَلَا تُجِيبُوهُ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ
شَاعَ الْخَبْرُ وَانْتَشَرَ، بِأَنَّ الْمَيْتَ قَدْ نُشِرَ، وَأَخَذْتُنَا الْمُبَارَى، مِنْ كُلِّ دَارٍ، وَأَنْتَالَتْ عَلَيْنَا الْمُدَايَا مِنْ كُلِّ جَارٍ، حَتَّى
وَرِمَ كَيْسِنَا فَصَنَّةً وَتَبْرًا وَامْتِلَاءً رَحْلُنَا أَقْطًا وَتَمْرًا، وَجَهْدَنَا أَنْ نَنْتَهِيَ فُرْصَةً فِي الْهَرَبِ فَلَمْ نَجِدْهَا، حَتَّى حَلَّ
الأَجَلَ الْمَضْرُوبَ، وَاسْتُنْجَزَ الوَعْدُ الْمَكْدُوبُ فَقَالَ الإِسْكَندَرِيُّ: هَلْ سَمِعْتُمْ لِهَذَا الْعَلِيلِ رِكْرًا، أَوْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ
رَمْرًا؟ فَقَالُوا: لَا، فَقَالَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ صَوْتٌ مُذْ فَارِقْتُهُ، فَلَمْ يَجِبْ بَعْدُ وَقْتَهُ، دَعُوهُ إِلَى غَدٍ فَإِنَّكُمْ إِذَا سَمِعْتُمْ
صَوْتَهُ، أَمِنْتُمْ مَوْتَهُ، ثُمَّ عَرَّفُونِي لِأَحْتَالَ فِي عِلَاجِهِ، وَإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ مِنْ مِرَاجِهِ، فَقَالُوا: لَا تُؤَخَّرْ ذَلِكَ عَنِّ
غَدٍ، قَالَ: لَا، فَلَمَّا انْتَسَمَ نَعْرَ الصُّبْحِ وَانْتَشَرَ جَنَاحُ الصُّوِّ، فِي أَفْقِ الْجَوِّ، جَاءَهُ الرَّجَالُ أَفْوَاجًا، وَالنِّسَاءُ
أَزْوَاجًا، وَقَالُوا: نَحِبُّ أَنْ تَشْفِيَ الْعَلِيلَ، وَتَدَعَ الْقَالَ وَالْقِيلَ، فَقَالَ الإِسْكَندَرِيُّ: قُومُوا بِنَا إِلَيْهِ، ثُمَّ حَمَرَ
التَّمَائِمَ عَن يَدَيْهِ، وَحَلَّ الْعِمَائِمَ عَن جَسَدِهِ، وَقَالَ: أَيْمُوهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنِيَمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيْمُوهُ عَلَى رِجْلَيْهِ،
فَأُقِيمُ، ثُمَّ قَالَ: خَلُّوا عَن يَدَيْهِ، فَسَقَطَ رَأْسًا، وَطَنَّ الإِسْكَندَرِيُّ بِفِيهِ وَقَالَ: هُوَ مَيْتٌ كَيْفَ أُحْيِيهِ؟ فَأَخَذَهُ
الْحُفَّ، وَمَلَكَتُهُ الأَكْفُ، وَصَارَ إِذَا رُفِعَتْ عَنْهُ يَدٌ وَقَعَتْ عَلَيْهِ أُخْرَى، ثُمَّ تَشَاغَلُوا بِتَجْهِيزِ الْمَيْتِ، فَانْسَلَلْنَا
هَارِبِينَ حَتَّى أَتَيْنَا قَرْيَةً عَلَى شَفِيرِ وَادِ السَّيْلِ يُطْرَفُهَا وَالمَاءُ يَتَحَفِّفُهَا. وَأَهْلُهَا مَعْتَمُونَ لَا يَمْلِكُهُمْ غُمُضُ اللَّيْلِ،
مِنْ خَشْيَةِ السَّيْلِ، فَقَالَ الإِسْكَندَرِيُّ: يَا قَوْمَ أَنَا أَكْفِيكُمْ هَذَا المَاءَ وَمَعْرَتَهُ، وَأَرُدُّ عَن هَذِهِ الْقَرْيَةِ مَضْرَتَهُ،
فَأَطِيعُونِي، وَلَا تُبْرِمُوا أَمْرًا دُونِي، فَقَالُوا: وَمَا أَمْرُكَ؟ فَقَالَ: أَدْبَحُوا فِي

مَجْرَى هَذَا المَاءِ بَقْرَةً صَفْرَاءَ، وَأَتُونِي بِجَارِيَةٍ عَذْرَاءَ، وَصَلُّوا خَلْفِي رَكَعَتَيْنِ بَيْنَ اللَّهِ عَنكُمْ عِنَانِ هَذَا المَاءِ،
إِلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَنْشَأِ المَاءُ فَدَمِي عَلَيْكُمْ حَلَالٌ، قَالُوا: نَفْعَلُ ذَلِكَ، فَدَبَّحُوا الْبَقْرَةَ، وَزَوَّجُوا
الْجَارِيَةَ، وَقَامَ إِلَى الرَّكَعَتَيْنِ يُصَلِّيهِمَا، وَقَالَ: يَا قَوْمَ احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ لَا يَقَعُ مِنْكُمْ فِي الْقِيَامِ كَبُؤٌ، أَوْ فِي
الرُّكُوعِ هَفُؤٌ، أَوْ فِي السُّجُودِ سَهُؤٌ، أَوْ فِي الْقُعُودِ لَعُؤٌ، فَمَتَى سَهَوْنَا خَرَجَ أَمْلُنَا عَاطِلًا، وَذَهَبَ عَمَلُنَا بَاطِلًا،
وَاصْبِرُوا عَلَى الرَّكَعَتَيْنِ فَمَسَافَتُهُمَا طَوِيلَةٌ، وَقَامَ لِلرُّكُوعِ الأُولَى فَانْتَصَبَ انْتِصَابَ الْجُدْعِ، حَتَّى شَكُوا وَجَعَ
الضُّلْعِ، وَسَجَدَ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ هَجَدَ وَلَمْ يَشْجِعُوا لِرَفْعِ الرُّؤُوسِ، حَتَّى كَبَرَ لِلْجُلُوسِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى
السَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ، وَأَوْمَأَ إِلَيْيَ، فَأَخَذْنَا الْوَادِيَّ وَتَرَكْنَا الْقَوْمَ سَاجِدِينَ، لَا نَعْلَمُ مَا صَنَعَ الدَّهْرُ بِهِمْ، فَانْشَأَ أَبُو
الْفَتْحِ يَقُولُ: رَى هَذَا المَاءِ بَقْرَةً صَفْرَاءَ، وَأَتُونِي بِجَارِيَةٍ عَذْرَاءَ، وَصَلُّوا خَلْفِي رَكَعَتَيْنِ بَيْنَ اللَّهِ عَنكُمْ عِنَانِ
هَذَا المَاءِ، إِلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَنْشَأِ المَاءُ فَدَمِي عَلَيْكُمْ حَلَالٌ، قَالُوا: نَفْعَلُ ذَلِكَ، فَدَبَّحُوا الْبَقْرَةَ،

وَزَوْجُوهُ الْجَارِيَّةَ، وَقَامَ إِلَى الرَّكْعَتَيْنِ يُصَلِّيهِمَا، وَقَالَ: يَا قَوْمَ احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ لَا يَقَعَنَّ مِنْكُمْ فِي الْقِيَامِ كَبُورٌ،
أَوْ فِي الرُّكُوعِ هَفْوٌ، أَوْ فِي السُّجُودِ سَهْوٌ، أَوْ فِي الْقُعُودِ لَعْوٌ، فَمَتَّى سَهَوْنَا خَرَجَ أَمَلْنَا عَاطِلًا، وَذَهَبَ عَمَلْنَا
بَاطِلًا، وَاصْبِرُوا عَلَى الرَّكْعَتَيْنِ فَمَسَافَتَهُمَا طَوِيلَةٌ، وَقَامَ لِلرَّكْعَةِ الْأُولَى فَانْتَصَبَ انْتِصَابَ الْجَذَعِ، حَتَّى شَكُوا
وَجَعَ الصَّلْعُ، وَسَجَدَ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ هَجَدَ وَلَمْ يَشْجِعُوا لِرَفْعِ الرَّؤُوسِ، حَتَّى كَبَرَ لِلْجُلُوسِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى
السَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ، وَأَوْمَأَ إِلَيَّ، فَأَخَذْنَا الْوَادِيَّ وَتَرَكْنَا الْقَوْمَ سَاجِدِينَ، لَا نَعْلَمُ مَا صَنَعَ الدَّهْرُ بِهِمْ، فَأَنْشَأَ أَبُو
الْفَتْحِ يَقُولُ:

لَا يُبْعَدُ اللَّهُ مِثْلِي ... وَأَيْنَ مِثْلِي أَيْنَا؟

لِللَّهِ عَقْلَةٌ قَوْمٌ ... غَمَّتْهَا بِالْهُوَيْنَا!

اَكْتَلْتُ خَيْرًا عَلَيْهِمْ ... وَكَلْتُ زُورًا وَمِينًا

الْمَقَامَةَ الْمَضِيرِيَّةَ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ، وَمَعِيَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ رَجُلٌ الْفَصَاحَةُ يَدْعُوهَا فَتْحِيئُهُ، وَالْبَلَاغَةُ يَأْمُرُهَا فَطِيعُهُ،
وَحَضَرْنَا مَعَهُ دَعْوَةَ بَعْضِ الثُّجَّارِ، فَقَدِمَتْ إِلَيْنَا مَضِيرَةٌ، تُنَبِّئُنِي عَلَى الْحَضَارَةِ، وَتَتَرَجَّرُ فِي الْعَضَارَةِ، وَتُوذِنُ
بِالسَّلَامَةِ، وَتَشْهَدُ لِمَعَاوِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْإِمَامَةِ، فِي قِصْعَةٍ يَزِلُّ عَنْهَا الطَّرْفُ، وَيَمُوجُ فِيهَا الطَّرْفُ، فَلَمَّا
أَخَذْتُ مِنَ الْخِوَانِ مَكَانَهَا، وَمِنَ الْقُلُوبِ أَوْطَانَهَا، قَامَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ يَلْعَنُهَا وَصَاحِبَهَا، وَيَمْتَقِنُهَا
وَآكِلَهَا، وَيَتْلُبُهَا وَطَابِخَهَا، وَظَنَانَهُ يَمْرُحُ فَإِذَا الْأَمْرُ بِالصَّدِّ، وَإِذَا الْمِرَاحُ عَيْنَ الْجِدِّ، وَتَنَحَّى عَنِ الْخِوَانِ،
وَتَرَكَ مُسَاعَدَةَ الْإِخْوَانِ، وَرَفَعْنَاهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوبُ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا الْعُيُونُ، وَتَحَلَّتْ لَهَا الْأَفْوَاهُ،
وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ، وَاتَّقَدَتْ لَهَا الْأَكْبَادُ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفُؤَادُ، وَلَكِنَّا سَاعَدْنَاهُ عَلَى هَجْرِهَا، وَسَأَلْنَاهُ
عَنْ أَمْرِهَا، فَقَالَ: قِصَّتِي مَعَهَا أَطْوَلُ مِنْ مُصِيبَتِي فِيهَا، وَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِهَا لَمْ آمَنِ الْمَقْتُ، وَإِصَاعَةُ الْوَقْتُ،
قُلْنَا: هَاتِ: قَالَ: دَعَانِي بَعْضُ الثُّجَّارِ إِلَى مَضِيرَةٍ وَأَنَا بَعْدَادَ، وَلَزِمَنِي مُلَازِمَةٌ الْعَرِيمِ، وَالْكَلْبُ لِأَصْحَابِ
الرَّقِيمِ، إِلَى أَنْ أَجَبْتُهُ إِلَيْهَا، وَقُمْنَا فَجَعَلَ طَوْلَ الطَّرِيقِيئِنِي عَلَيَّ زَوْجَتِهِ، وَيُقَدِّئِيهَا بِمُهْجَتِهِ، وَيَصِفُ حِدْقَهَا فِي
صَنْعَتِهَا، وَتَأْتِقُهَا فِي طَبِخِهَا وَيَقُولُ: يَا مَوْلَايَ لَوْ رَأَيْتَهَا، وَالْحَرْقَةُ فِي وَسْطِهَا، وَهِيَ تَدُورُ فِي الدُّورِ، مِنْ
التُّورِ إِلَى الْقُدُورِ وَمِنَ الْقُدُورِ إِلَى التُّورِ تَنْفُثُ بَغِيهَا النَّارَ، وَتَدُقُّ بِيَدَيْهَا الْأَبْرَارَ، وَلَوْ رَأَيْتِ الدُّخَانَ وَقَدْ
غَبَّرَ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ الْجَمِيلِ، وَأَثَرَ فِي ذَلِكَ الْخَدَّ الصَّقِيلِ، لَرَأَيْتَ مَنْظَرًا تَحَارُ فِيهِ الْعُيُونُ: وَأَنَا أَعْشَقُهَا لِأَنَّهَا
تَعْشِقُنِي، وَمِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يُرَزِّقَ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ حَلِيلَتِهِ، وَأَنْ يَسْعَدَ بِطَعْنَتِهِ، وَلَا سِيمًا إِذَا كَانَتْ مِنْ طِينَتِهِ،
وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي لِحَا، طِينَتُهَا طِينَتِي، وَمَدِينَتُهَا مَدِينَتِي، وَعُمُومَتُهَا عُمُومَتِي، وَأَرْوَمَتُهَا أَرْوَمَتِي، لَكِنَّا أَوْسَعُ
مَنِّي خُلُقًا، وَأَحْسَنُ خُلُقًا وَصَدَّعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مَحَلَّتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَوْلَايَ تَرَى هَذِهِ
الْمَحَلَّةَ؟ هِيَ أَشْرَفُ مَحَالِّ بَعْدَادَ، يَتَنَافَسُ الْأَخْيَارُ فِي نُزُولِهَا، وَيَتَبَاغَرُ الْكِبَارُ فِي حُلُولِهَا، ثُمَّ لَا يَسْكُنُهَا غَيْرُ
الثُّجَّارِ، وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِالْجَارِ وَدَارِي فِي السُّطَّةِ مِنْ قِلَادَتِهَا، وَالنَّقْطَةُ مِنْ دَائِرَتِهَا، كَمْ تُقَدَّرُ يَا مَوْلَايَ أَنْفَقَ عَلَى
كُلِّ دَارٍ مِنْهَا؟ قُلْتُ تَحْمِينًا إِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ يَقِينًا، قُلْتُ: الْكَثِيرُ، فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَكْبَرَ هَذَا الْعَلَطُ! تَقُولُ

الكثير فقط؟ وتَنَسَّ الصُّعْدَاءَ، وَقَالَ: سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ، وَأَنْتَهَيْنَا إِلَى بَابِ دَارِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، كَمْ تُقَدِّرُ يَا مَوْلَايَ أَنْفَقْتُ عَلَى هَذِهِ الطَّاقَةِ؟ أَنْفَقْتُ وَاللَّهِ عَلَيْهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَوَرَاءَ الْفَاقَةِ، كَيْفَ تَرَى صَنَعْتَهَا وَشَكْلَهَا؟ أَرَأَيْتَ بِاللَّهِ مِثْلَهَا؟ انْظُرْ إِلَى دَفَاقِ الصَّنْعَةِ فِيهَا، وَتَأَمَّلْ حُسْنَ تَعْرِيجِهَا، فَكَأَنَّما خُطَّ بِالْبِرِّكَارِ

وَانْظُرْ إِلَى حَذْقِ التَّجَارِ فِي صَنْعَةِ هَذَا الْبَابِ، اتَّخَذَهُ مِنْ كَمْ؟ قُلْ: وَمِنْ أَيْنَ أَعْلَمُ، هُوَ سَاجٌّ مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ لَا مَارُوضٌ وَلَا عَفْنٌ، إِذَا حُرِّكَ أَنْ، وَإِذَا نُقِرَ طَنْ، مَنْ اتَّخَذَهُ يَا سَيِّدِي؟ اتَّخَذَهُ أَبُو إِسْحَاقَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيُّ، وَهُوَ وَاللَّهُ رَجُلٌ نَظِيفُ الْأَثْوَابِ، بَصِيرٌ بِصَنْعَةِ الْأَبْوَابِ خَفِيفُ الْيَدِ فِي الْعَمَلِ، لِلَّهِ دَرٌّ ذَلِكَ الرَّجُلِ! بِحَيَاتِي لَا اسْتَعْتَّ إِلَّا بِهِ عَلَى مِثْلِهِ، وَهَذِهِ الْحَلَقَةُ تَرَاهَا اشْتَرَيْتُهَا فِي سُوقِ الطَّرَائِفِ مِنْ عِمْرَانَ الطَّرَائِفِيِّ بِثَلَاثَةِ دَنَابِيرٍ مُعَزَّيَّةٍ، وَكَمْ فِيهَا يَا سَيِّدِي مِنَ الشَّبْهِ؟ فِيهَا سِتَّةُ أَرْطَالٍ، وَهِيَ تَدُورُ بِلَوْلَبٍ فِي الْبَابِ، بِاللَّهِ دَوْرَهَا، ثُمَّ اقْرَئَهَا وَأَبْصُرْهَا، وَبِحَيَاتِي عَلَيْكَ لَا اشْتَرَيْتَ الْحَلِقَ إِلَّا مِنْهُ؛ فَلَيْسَ يَبِيعُ إِلَّا الْأَعْلَاقَ، ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ وَدَخَلْنَا الدَّهْلِينَ، وَقَالَ: عَمَّرَكَ اللَّهُ يَا دَارُ وَلَا خَرَبَكَ يَا جِدَارُ، فَمَا أَمْتَنَ حِطَّانَكَ، وَأَوْثَقَ بُنْيَانَكَ، وَأَقْوَى أَسَاسَكَ، تَأَمَّلْ بِاللَّهِ مَعَارِجَهَا، وَتَيِّبْ دَوَاحِلَهَا وَخَوَارِجَهَا، وَسَلِّني: كَيْفَ حَصَلَتْهَا؟ وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ احْتَلَتْهَا، حَتَّى عَقَدْتَهَا؟ كَانَ لِي جَارٌ يُكْنَى أَبُو سُلَيْمَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ الْمَحَلَّةَ، وَلَهُ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَسَعُهُ الْخَزْنُ، وَمِنَ الصَّامِتِ مَا لَا يَحْضُرُهُ الْوِزْنُ، مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَخَلَّفَ خَلْفًا أَتْلَفُهُ بَيْنَ الْحَمْرِ وَالزَّمْرِ، وَمَرْقَهُ بَيْنَ التَّرْدِ وَالْقَمْرِ، وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَسُوقَهُ قَائِدُ الْاضْطِرَارِ، إِلَى بَيْعِ الدَّارِ، فَيَبِيعَهَا فِي أَثْنَاءِ الصُّجْرِ، أَوْ يَجْعَلَهَا عُرْضَةً لِلْخَطْرِ، ثُمَّ أَرَاهَا، وَقَدْ فَاتَنِي شِرَاهَا، فَأَتَقَطَعُ عَلَيْهَا حَسْرَاتِي، إِلَى يَوْمِ الْمَمَاتِ، فَعَمِدْتُ إِلَى أَثْوَابِ لَا تَبِصُّ تِجَارَتُهَا فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ، وَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ، وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيهَا نَسِيَةً، وَالْمُدْبِرُ يَحْسَبُ النَّسِيَةَ عَطِيَّةً، وَالْمُتَخَلِّفُ يَعْتَدُهَا هَدِيَّةً، وَسَأَلْتُهُ وَثِيقَةً بِأَصْلِ الْمَالِ، فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي، ثُمَّ تَغَافَلْتُ عَنْ أَقْبِصَانِهِ، حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرِقُّ، فَاتَيْتُهُ فَاقْتَضَيْتُهُ، وَاسْتَمَهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ، وَالتَّمَسَ غَيْرَهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتُهُ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ رَهِيَّةً لَدَيَّ، وَوَثِيقَةً فِي يَدَيَّ، فَفَعَلَ، ثُمَّ دَرَجْتُهُ بِالْمَعَامَلَاتِ إِلَى بَيْعِهَا حَتَّى حَصَلَتْ لِي بِجَدِّ صَاعِدٍ، وَبَحْتِ مُسَاعِدٍ، وَقُوَّةِ سَاعِدٍ، وَرُبِّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مَجْدُودٌ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مَحْمُودٌ، وَحَسْبُكَ يَا مَوْلَايَ أَنِّي كُنْتُ مِنْذُ لَيَالٍ نَائِمًا فِي الْبَيْتِ مَعَ مَنْ فِيهِ إِذْ فُرِعَ عَلَيْنَا الْبَابُ

فَقُلْتُ: مِنَ الطَّرِيقِ الْمُتَنَابُ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مَعَهَا عَقْدُ لَالٍ، فِي جِلْدَةِ مَاءٍ وَرَقَّةِ آلٍ، تُعْرِضُهُ لِلْبَيْعِ، فَأَخَذْتُهُ مِنْهَا إِخْذَةً خَلَسَ، وَاشْتَرَيْتُهُ بِبَنَمِنٍ بِخَسٍ، وَسَيَكُونُ لَهُ نَفْعٌ ظَاهِرٌ، وَرَبْحٌ وَافِرٌ، بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَدَوْلَتِكَ، وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ سَعَادَةَ جَدِّي فِي التَّجَارَةِ، وَالسَّعَادَةَ تُبْطِ الْمَاءَ مِنَ الْحِجَارَةِ، اللَّهُ أَكْبَرُ لَا يُنْبِتُكَ أَصْدَقُ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا أَقْرَبُ مِنْ أَمْسِكَ، اشْتَرَيْتُ هَذَا الْحَصِيرَ فِي الْمُنَادَاتِ، وَقَدْ أُخْرِجَ مِنْ دُورِ آلِ الْفِرَاتِ، وَقَتِ الْمَصَادِرَاتِ، وَزَمَنِ الْعَارَاتِ وَكُنْتُ أَطْلُبُ مِثْلَهُ مِنْذُ الزَّمَنِ الْأَطْوَلِ فَلَا أَجِدُ، وَاللَّذْهَرُ حُجْلِي لَيْسَ يُدْرَى مَا يَلِدُ، ثُمَّ اتَّفَقَ أَيْ حَضَرْتُ بَابَ الطَّاقِ، وَهَذَا يُعْرَضُ بِالْأَسْوَاقِ، فَوَزَنْتُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا، تَأَمَّلْ بِاللَّهِ دِقَّتَهُ وَلِينَهُ، وَصَنَعَتَهُ وَلَوْنَهُ، فَهُوَ عَظِيمُ الْقَدْرِ، لَا يَقَعُ مِثْلُهُ إِلَّا فِي النَّدْرِ، وَإِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِأَبِي عِمْرَانَ الْحَصِيرِيِّ فَهُوَ عَمَلُهُ، وَلَهُ ابْنٌ يَخْلُفُهُ الْآنَ فِي حَائِثِهِ لَا يُوْجَدُ اعْلَاقُ الْحَصْرِ إِلَّا عِنْدَهُ؛ فَبِحَيَاتِي لَا

اشتريت الحُصْرَ إِلا مِنْ دُكَّانِهِ، فَالْمُؤْمِنُ ناصِحٌ لِإِخْوَانِهِ، لا سِيَّما مَنْ تَحَرَّمَ بِخَوَانِهِ، وَنَعُودُ إِلى حَدِيثِ المَصِيرَةِ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ، يا غُلامُ الطَّسْتِ والماءِ فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ، رَبِّما قُرْبَ الفَرَجِ، وَسَهْلَ المَخْرَجِ، وَتَقَدَّمَ الغُلامُ، فَقَالَ: تَرى هَذَا الغُلامَ؟ إِنَّهُ رُومِيٌّ الأَصْلُ، عِراقِيٌّ النَّشْءُ. تَقَدَّمَ يا غُلامُ واحسِرْ عَن رَأْسِكَ، وَشَمِّرْ عَن ساقِكَ، وانضُ عَن ذِراعِكَ، وَأفترَّ عَن أَسنانِكَ، وَأَقْبِلْ وَأدْبِرْ، فَفَعَلَ الغُلامُ ذَلِكَ، وَقَالَ: التَّاجِرُ: اللهُ مِنْ اشْتِراءِهِ؟ اشْتِراءَهُ اللهُ أَبُو العَبَّاسِ، مِنْ النَّخَّاسِ، ضَعَّ الطَّسْتُ، وَهاتِ الإِبْرِيقُ، فَوَضَعَهُ الغُلامُ وَأَحَدَهُ التَّاجِرُ وَقَلْبَهُ وَأَدَارَ فِيهِ النَّظَرَ ثُمَّ نَقَرَهُ، فَقَالَ: انظُرْ إِلى هَذَا الشَّيْبِ كَأَنَّهُ جِدْوَةٌ اللَّهَبِ، أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ، شِبْهُ الشَّامِ، وَصَنَعَةُ العِراقِ، لَيْسَ مِنْ خُلُقانِ الأَعْلانِ

قَدْ عَرَفَ دُورَ المُلُوكِ وَدارِها، تَأَمَّلْ حُسْنَهُ وَسَلْبِي مَتى اشْتِريتُهُ؟ اشْتِريتُهُ اللهُ عَامَ المِجَاعَةِ، وَادَّخَرْتُهُ لِهَذِهِ السَّاعَةِ، يا غُلامُ الإِبْرِيقِ، فَقَدَّمَهُ وَأَحَدَهُ التَّاجِرُ قَلْبَهُ ثُمَّ قَالَ وَأَثْبُوبُهُ مِنْهُ لا يَصْلُحُ هَذَا الإِبْرِيقُ إِلا لِهَذَا الطَّسْتِ، وَلا يَصْلُحُ هَذَا الطَّسْتُ إِلا مَعَ هَذَا اللَّسْتِ، وَلا يَحْسُنُ هَذَا اللَّسْتُ إِلا فِي هَذَا البَيْتِ، وَلا يَجْمَلُ هَذَا البَيْتُ إِلا مَعَ هَذَا الصَّيْفِ، أُرْسِلِ الماءَ يا غُلامُ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الطَّعامِ، باللهِ تَرى هَذَا الماءَ ما أَصْفاهُ، أَزْرَقُ كَعَيْنِ السُّنُورِ، وَصافٍ كَقَضِيبِ البُلُورِ، اسْتَهَيَّ مِنَ الفِرَّاتِ، وَاسْتَعْمَلَ بَعْدَ البِياتِ، فَجاءَ كِلسانِ الشَّمْعَةِ، فِي صَفاءِ الدَّمْعَةِ، وَليسَ الشَّانُ فِي السَّقَّاءِ، الشَّانُ فِي الإِناءِ، لا يَدُلُّكَ عَلى نَظافَةِ أَسابِغِهِ، أَصَدَقُ مِنْ نَظافَةِ شِرابِهِ، وَهَذَا المِنْدِيلُ سَلْبِي عَن قِصَّتِهِ، فَهُوَ نَسِجُ جُرْجانَ، وَعَمَلُ أَرْجانَ، وَقَعَ إِليَّ فَاشْتِريتُهُ، فَاتَّخَذَتِ امْرَأَتِي بَعْضَهُ سِراوِيلاً، وَاتَّخَذْتُ بَعْضَهُ مَنديلاً، دَخَلَ فِي سِراوِيلِها عِشْرُونَ ذِراعاً، وَانْتَرَعْتُ مِنْ يَدِها هَذَا القَدَرِ انْتِراعاً، وَأَسَلَمْتُهُ إِلى المَطْرَظِ حَتَّى صَنَعَهُ كَما تَراهُ وَطَرَزَهُ، ثُمَّ رَدَدْتُهُ مِنَ السُّوقِ، وَخَزَنْتُهُ فِي الصُّنْدُوقِ، وَادَّخَرْتُهُ لِلظَّرَافِ، مِنَ الأَضْيافِ لَمْ تُدِلَّهُ عَرَبُ العَامِضَةِ بِأَيْدِها، وَلا النَّساءُ لِمَاقِها، فَلِكُلِّ عَلى يَوْمٍ، وَلِكُلِّ آلهِ قَوْمٍ، ياغُلامُ الخِوانِ، فَقَدْ طالَ الزَّمانُ، وَالقِصاعُ، فَقَدْ طالَ المِصاعُ، وَالطَّعامُ، فَقَدْ كَثُرَ الكَلامُ، فَأتى الغُلامُ بالخِوانِ، وَقَلْبَهُ التَّاجِرُ عَلى المِكانِ، وَنَقَرَهُ بالبِنانِ، وَعَجَمَهُ بالأَسنانِ، وَقَالَ: عَمَرَ اللهُ بَعْدادَ ما أَجودَ مِتاَعِها، وَأَطْرَفَ صِناَعِها، تَأَمَّلْ باللهِ هَذَا الخِوانِ، وَانظُرْ إِلى عَرَضِ مِتابِهِ، وَخِيفَةِ وَزَنِهِ، وَصِلاَبَةِ عُوْدِهِ، وَحُسْنِ شِكلِهِ، فَقُلْتُ: هَذَا الشِّكْلُ، فَمَتى الأَكْلُ؟ فَقَالَ: الآنَ، عَجَّلْ ياغُلامُ الطَّعامَ، لَكِنَّ الخِوانَ قِوايمُهُ مِنْهُ، قالَ أَبُو الفَتْحِ الإسْكَنَدَرِيُّ فَجاشَتْ نَفْسِي وَقُلْتُ قَدْ بَقِيَ الخَبِرُ وَالأَتَةُ وَالخَبِرُ وَصِفاَتُهُ وَالخِناطَةُ مِنْ أَيْنَ اشْتِريتَ أَصلاً، وَكَيْفَ أَكْتَرى لَها حَمَلاً، وَفِي أَيِّ رَحى طَحَنَ، وَإِجانَةَ عَجَنَ، وَأَيِّ تَنُورٍ سَجَرَ، وَخَبَّازٍ اسْتَأْجَرَ، وَبَقِيَ الحَطَبُ مِنْ أَيْنَ احْتِطَبَ، وَمَتى جَلِبَ؟ وَكَيْفَ صَنَّفَ حَتَّى جَفَّفَ؟ وَحَبَسَ، حَتَّى يَسَ، وَبَقِيَ الحَبَّازُ وَوصَفُهُ، وَالتَّلْمِيذُ وَنَعْتُهُ، وَالدَّقِيقُ وَمدَحُهُ، وَالخَمِيرُ وَشِرحُهُ، وَالْمِلْحُ وَمِلاحَتُهُ

وَبَقِيَتِ السُّكْرَجاتُ مَنْ اتَّخَذَها، وَكَيْفَ انْتَقَدَها، وَمَنْ اسْتَعْمَلَها؟ وَمَنْ عَمَلَها؟ وَالخَلُّ كَيْفَ انْتَهَى عِنبُهُ، أَوْ اشْتِري رُطْبَهُ، وَكَيْفَ صَهْرَجَتْ مِعْصِرَتُهُ؟ وَاسْتَخْلِصَ لُبُّهُ؟ وَكَيْفَ فَيَّرَ حَبَّهُ؟ وَكَمْ يُساوِي دُنْهُ؟ وَبَقِيَ البَقْلُ كَيْفَ احْتَبِلَ لَهُ حَتَّى قُطِفَ؟ وَفِي أَيِّ مَبْقَلَةٍ رُصِفَ؟ وَكَيْفَ تُؤنَّقُ حَتَّى نُطَّفَ؟ وَبَقِيَتِ المَصِيرَةُ كَيْفَ اشْتِري لَحْمَها؟ وَوَفى شَحْمَها؟ وَنُصِبَتْ قِندرُها، وَأَجَجَتْ نارُها، وَدُقَّتْ أَرارُها، حَتَّى أُجيدَ طَبخُها وَعَقِدَ مَرَقُها؟

وَهَذَا حَظُّ يَطْمُ، وَأَمْرٌ لَا يَتَمُّ، فَفُتْمْتُ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقُلْتُ: حَاجَةٌ أَقْضِيهَا، فَقَالَ: يَا مَوْلَايَ تُرِيدُ كَنِيْفًا يُزْرِي بَرِيْعِي الْأَمِيرَ، وَخَرِيْفِي الْوَزِيرَ، قَدْ جُصِّصَ أَعْلَاهُ، وَصَهْرَجَ أَسْفَلُهُ، وَسَطَّحَ سَقْفُهُ، وَفَرَشَتْ بِالْمَرْمَرِ أَرْضُهُ، يَزِلُّ عَنْ حَائِطِهِ الذَّرُّ فَلَا يَلْقَى، وَيَمْشِي عَلَى أَرْضِهِ الذُّبَابُ فَيَنْزِلُ، عَلَيْهِ بَابٌ غَيْرُهُ مِنْ خَلِيْطِي سَاجٍ وَعَاجٍ، مُزْدَوِجِينَ أَحْسَنَ ازْدِوَاجٍ، يَتِمْنَى الصَّيْفُ أَنْ يَأْكَلَ فِيهِ، فَقُلْتُ: كُلُّ أَتٍّ مِنْ هَذَا الْجِرَابِ، لَمْ يَكُنِ الْكَنِيْفُ فِي الْحِسَابِ، وَخَرَجْتُ نَحْوَ الْبَابِ، وَأَسْرَعْتُ فِي الذَّهَابِ، وَجَعَلْتُ أَعْدُوَ وَهُوَ يَتَّبِعُنِي وَيَصِيحُ: يَا أَبَا الْفَتْحِ الْمَضِيرَةَ، وَظَنَّ الصَّبِيَّانُ أَنَّ الْمَضِيرَةَ لَقَبٌ لِي فَصَاحُوا صِيَاحَهُ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ، مِنْ فَرْطِ الصَّخْرِ، فَلَقِيَ رَجُلًا الْحَجَرَ بِعِمَامَتِهِ، فَغَاصَ فِي هَامَتِهِ، فَأُخِذْتُ مِنَ التَّعَالِ بِمَا قَدِمَ وَحَدَّثْتُ، وَمِنْ الصَّنْعِ بِمَا طَابَ وَخَبْتُ، وَحَشِرْتُ إِلَى الْحِسِّ، فَاقْتَمْتُ عَامِينَ فِي ذَلِكَ النَّحْسِ، فَتَذَرْتُ أَنْ لَا أَكُلَ مَضِيرَةً مَا عَشْتُ، فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَالْهَمْدَانَ ظَلْمٌ؟

قَالَ عِيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقَبِلْنَا غُدْرَهُ، وَتَذَرْنَا نَذْرَهُ، وَقُلْنَا: قَدِيمًا جَنَّتِ الْمَضِيرَةُ عَلَى الْأَحْرَارِ، وَقَلَّمَتْ الْأَرَادِلَ عَلَى الْأَخْيَارِ.

المقامة الحرزية

حَدَّثَنَا عِيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: لَمَّا بَلَغَتْ بِي الْغُرْبَةُ بَابَ الْأَبْوَابِ، وَرَضِيْتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ، وَدُونَهُ مِنَ الْبَحْرِ وَتَابُ بَغَارِهِ، وَمِنَ السُّفُنِ عَسَافُ بَرَاجِيهِ، اسْتَحْرَتُ اللَّهَ فِي الْقُقُولِ، وَقَعَدْتُ مِنَ الْفُلْكِ، بِمَثَابَةِ الْهَلْكِ، وَلَمَّا مَلَكْنَا الْبَحْرَ وَجَنَّا عَلَيْنَا اللَّيْلُ غَشِيَتْنَا سَحَابَةٌ تَمُدُّ مِنَ الْأَمْطَارِ حَبَالًا، وَتَحْدُو مِنَ الْغَيْمِ حَبَالًا، بِرِيحٍ تُرْسِلُ الْأَمْوَاجَ أَزْوَاجًا، وَالْأَمْطَارَ أَفْوَاجًا، وَبَقِينَا فِي يَدِ الْحَيْنِ، بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ، لَا نَمْلِكُ عُدَّةَ غَيْرِ الدُّعَاءِ، وَلَا حِيلَةَ إِلَّا الْبُكَاءَ وَلَا عَصْمَةَ غَيْرَ الرَّجَاءِ، وَطَوَيْنَاهَا لَيْلَةً نَابِغِيَّةً، وَأَصْبَحْنَا نَتْبَاكِي وَنَتَشَاكِي، وَفِينَا رَجُلٌ لَا يَخْضَلُ جَفْنَهُ، وَلَا تَبْتَلُ عَيْنُهُ، رَخِي الصَّلْرُ مُنْشَرِحُهُ، نَشِيْطُ الْقَلْبِ فَرِحُهُ، فَعَجَبْنَا وَاللَّهِ كُلَّ الْعَجَبِ، وَقُلْنَا لَهُ: مَا الَّذِي أَمَّنَكَ مِنَ الْعَطْبِ؟ فَقَالَ: حَرَزْتُ لَا يَغْرُقُ صَاحِبُهُ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمْنَحَ كَلًّا مِنْكُمْ حَرَزًا لَفَعَلْتُ، فَكُلُّ رَغْبٍ إِلَيْهِ، وَأَلْحٌ فِي الْمَسْأَلَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى يُعْطِيَنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ دِينَارًا الْآنَ، وَيَعِدَنِي دِينَارًا إِذَا سَلِمَ.

قَالَ عِيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَتَقَدَّنَاهُ مَا طَلَبَ، وَوَعَدَّنَاهُ مَا حَظَبَ، وَآبَتْ يَدُهُ إِلَى جِيْبِهِ، فَأَخْرَجَ قُطْعَةً دِيْبَاجٍ، فِيهَا حُقَّةٌ عَاجٍ، قَدْ ضَمَّنَ صَنْدُهَا رِقَاعًا، وَحَدَفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا، فَلَمَّا سَلَمْتِ السَّفِينَةَ، وَأَحَلَّتْنَا الْمَدِينَةَ، أَفْتَضَى النَّاسُ مَا وَعَدُّوه، فَتَقَدُّوه، وَأَنْتَهَى الْأَمْرُ إِلَيَّ فَقَالَ: دَعُوهُ، فَقُلْتُ: لَكَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تُعَلِّمَنِي سِرَّ حَالِكِ، قَالَ: أَنَا مِنْ بِلَادِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ نَصَرَكَ الصَّبْرُ وَخَدَلْنَا؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَيْكَ لَوْلَا الصَّبْرُ مَا كُنْتُ ... ت مَلَأْتُ الْكَيْسَ تَبْرًا

لَنْ يَنَالَ الْمَجْدَ مِنْ ضَا ... قَ بِمَا يَعْشَاهُ صَدْرًا

ثُمَّ مَا أَعْطَيْتَنِي السَّا ... عَةً مَا أُعْطِيْتُ ضَرًّا

بَلْ بِهِ أَشْتَدُّ أَرْزًا ... وَبِهِ أُجْبَرُ كَسْرًا

وَلَوْ أَنِّي الْيَوْمَ فِي الْعَرِّ ... قَى لَمَا كُفَلْتُ غُدْرًا

دَخَلْتُ مَارِسَانَ الْبَصْرَةَ وَمَعِيَ أَبُو دَاوُدَ الْمُتَكَلِّمُ فَظَهَرْتُ إِلَى مَجْهُونٍ تَأْخُذُنِي عَيْنُهُ وَتَدْعُنِي فَقَالَ: إِنْ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ، فَقُلْنَا: كَذَلِكَ، فَقَالَ: مَنْ الْقَوْمُ لِلَّهِ أَبُوهُمْ؟ فَقُلْتُ: أَنَا عَيْسَى ابْنُ هِشَامٍ وَهَذَا أَبُو دَاوُدَ الْمُتَكَلِّمُ فَقَالَ: الْعَسْكَرِيُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ وَأَهْلُهَا إِنَّ الْخَيْرَةَ لِلَّهِ لَا لِعَبْدِهِ، وَالْأُمُورَ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ يَا مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعِيشُونَ جَبْرًا، وَتَمُوتُونَ صَبْرًا وَتُسَاقُونَ إِلَى الْمَقْدُورِ قَهْرًا، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُيِّبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، أَفَلَا تُنْصِفُونَ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ؟ وَتَقُولُونَ: خَالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ! أَفَلَا تَقُولُونَ: خَالِقُ الْهَلِكِ هَالِكٌ؟ أَتَعْلَمُونَ يَقِينًا، أَنْكُمْ أَخْبَثُ مِنْ إِبْلِيسَ دِينًا؟ قَالَ: رَبِّ بِمَا أَعُوذُنِي، فَاقْرَأْ وَأَنْكُرْتُمْ وَأَمَنْ وَكَفَرْتُمْ، وَتَقُولُونَ: خَيْرٌ فَاخْتَارَ، وَكَأَلَّا فَإِنَّ الْمُخْتَارَ لَا يُعْجِجُ بَطْنُهُ، وَلَا يَفْقَأُ عَيْنُهُ وَلَا يَرْمِي مِنْ خَالِقِ ابْنِهِ، فَهَلِ الْإِكْرَاهُ إِلَّا مَا تَرَاهُ؟ وَالْإِكْرَاهُ مَرَّةً بِالْمَرَّةِ وَمَرَّةً بِالْمَرَّةِ. فَلْيُخْرِكُمْ أَنْ الْقُرْآنَ بَعْضُكُمْ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ يَعْظُمُكُمْ، إِذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدِثْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " رُؤِيتَ لِي الْأَرْضُ فَأَرِيتَ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا " جَحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي " أَنْعَضْتُمْ رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ وَإِنْ قِيلَ: " عَذَابُ الْقَبْرِ " تَطَيَّرْتُمْ، وَإِنْ قِيلَ: " الصِّرَاطُ " تَعَامَزْتُمْ وَإِنْ ذُكِرَ الْمِيزَانُ قُلْتُمْ: مِنَ الْفِرْعِ كِفْتَاهُ، وَإِنْ ذُكِرَ الْكِتَابُ قُلْتُمْ: مِنَ الْقِدِّ دَفْتَاهُ، يَا أَعْدَاءَ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ، بِمَاذَا تَطَيَّرُونَ؟ أِبَالِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ؟. إِنَّمَا مَرَقَتْ مَارِقَةٌ فَكَانُوا خَبَثَ الْحَدِيثِ، ثُمَّ مَرَقْتُمْ مِنْهَا فَأَنْتُمْ خَبَثُ الْحَبِيثِ، يَا مَخَابِيثَ الْخَوَارِجِ، تَرُونَ رَأْيَهُمْ إِلَّا الْقِتَالَ! وَأَنْتَ يَا ابْنَ هِشَامٍ تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتُكْفِرُ بِبَعْضٍ؟ سَمِعْتُ أَنَّكَ افْتَرَشْتَ مِنْهُمْ شَيْطَانَةً! أَلَمْ يَنْهَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْهُمْ بَطَانَةً؟. وَيَلِكْ هَلَا؟ تَخَيَّرْتَ لِنُطْفَتِكَ، وَنَظَرْتَ لِعَقِبِكَ؟ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَبْدِلْنِي بِهَوْلَاءِ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَشْهَدْنِي مَلَائِكَتِكَ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقِيْتُ وَبَقِيَ أَبُو دَاوُدَ لَا نُحِبُّ جَوَابًا، وَرَجَعْنَا عَنْهُ بِشَرِّ وَإِنِّي لِأَعْرِفُ فِي أَبِي دَاوُدَ انْكِسَارًا، حَتَّى إِذَا أَرَدْنَا الْإِفْتِرَاقَ قَالَ: يَا عَيْسَى هَذَا وَأَيْكَ الْحَدِيثُ، فَمَا الَّذِي أَرَادَ بِالشَّيْطَانَةِ؟ قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ مَا أَثْرِي، غَيْرَ أَنِّي هَمَمْتُ أَنْ أَخْطُبَ إِلَيْ أَحَدِهِمْ وَلَمْ أُحَدِّثْ بِمَا هَمَمْتُ بِهِ أَحَدًا، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدًا، فَقَالَ: مَا هَذَا وَاللَّهِ إِلَّا شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ، فَرَجَعْنَا إِلَيْهِ، وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ، فَابْتَدَرَ بِالْمَقَالِ، وَبَدَأْنَا بِالسُّؤَالِ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ آثَرْتُمْ، أَنْ تَعْرِفَا مِنْ أَمْرِي مَا أَنْكُرْتُمْ، فَقُلْنَا: كُنْتُ مِنْ قَبْلُ مُطَّلِعًا عَلَى أُمُورِنَا، وَلَمْ تَعُدْ الْآنَ مَا فِي صُدُورِنَا، فَفَسَّرْنَا لَنَا أَمْرَكَ، وَاكْشَفْنَا لَنَا سِرَّكَ، فَقَالَ:

أَنَا يَنْبُوغُ الْعَجَائِبِ ... فِي احْتِيَالِي ذُو مَرَاتِبِ

أَنَا فِي الْحَقِّ سَنَامٌ ... أَنَا فِي الْبَاطِلِ غَارِبٌ

أَنَا إِسْكَندَرُ دَارِي ... فِي بِلَادِ اللَّهِ سَارِبٌ

أَعْتَدِي فِي الدَّيْرِ قِسْيَسًا، وَفِي الْمَسْجِدِ رَاهِبًا.

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: كُنْتُ بِبَغْدَادَ عَامَ مَجَاعَةٍ فَمِلْتُ إِلَى جَمَاعَةٍ، قَدْ صَمَّمَهُمْ سِمْتُ الثَّرِيَاءِ، أَطْلُبُ مِنْهُمْ شَيْئًا، وَفِيهِمْ فِتْنٌ ذُو لُغَةٍ بِلِسَانِهِ، وَفَلَجٌ بِأَسْنَانِهِ، فَقَالَ: مَا خَطْبُكَ، قُلْتُ: حَالَانِ لَا يُفْلِحُ صَاحِبُهُمَا فَفِيهِ كَدُّهُ الْجُوعِ وَغَرِيبٌ لَا يُمَكِّنُهُ الرَّجُوعُ فَقَالَ الْغُلَامُ: أَيُّ الثَّلَمَتَيْنِ نُقَدِّمُ سَدَّهَا؟ قُلْتُ: الْجُوعُ فَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَبْلَغًا! قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِي رَغِيفٍ، عَلَى خِوَانٍ نَظِيفٍ، وَيُقَلُّ قَطِيفٌ إِلَى خَلِّ تَقِيفٍ، وَلَوْ نِ لَطِيفٍ، إِلَى خَرْدَلٍ حَرِيفٍ، وَشِوَاءٍ صَفِيفٍ، إِلَى مَلْحٍ خَفِيفٍ، يُقَدِّمُهُ إِلَيْكَ الْآنَ مَنْ لَا يَمْتَلِكُ بُوْعَدٍ وَلَا يُعَدُّكَ بَصِيرًا، ثُمَّ يُعَلِّكَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَقْدَاحٍ ذَهَبِيَّةٍ، مِنْ رَاحٍ عَنَبِيَّةٍ؟ أَدَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ أَوْسَاطُ مَحْشُوءَةٍ، وَأَكْوَابٌ مَمْلُوءَةٌ، وَأَنْقَالٌ مُعَدَّدَةٌ، وَفُرُشٌ مُنْصَدَّةٌ، وَأَنْوَارٌ مُجُودَّةٌ، وَمُطْرَبٌ مُجِيدٌ، لَهُ مِنَ الْغَزَالِ عَيْنٌ وَجِيدٌ؟ فَإِنْ لَمْ تُرِدْ هَذَا وَلَا ذَلِكَ، فَمَا قَوْلُكَ فِي لَحْمٍ طَرِيٍّ، وَسَمَكٍ نَهْرِيٍّ، وَبَازِنَجَانٍ مَقْلِيٍّ، وَرَاحٍ قُطْرُبُلِيٍّ، وَتَفَّاحٍ جَنِيٍّ، وَمَضْجَعٍ وَطِيٍّ، عَلَى مَكَانٍ عَلِيٍّ، حِذَاءَ نَهْرِ جَرَّارٍ، وَحَوْضٍ ثَرْتَارٍ، وَجَنَّةٍ ذَاتِ أَنْهَارٍ؟ قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ: أَنَا عَبْدُ الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: وَأَنَا خَادِمُهَا لَوْ كَانَتْ، فَقُلْتُ: لَا حَيَاكَ اللَّهُ، أَحْيَيْتَ شَهَوَاتِ قَدْ كَانَ الْيَأْسُ أَمَاتَهَا، ثُمَّ قَبَضْتَ لَهَا تَهَا، فَمَنْ أَيُّ الْخَرَابَاتِ أَنْتَ؟ فَقَالَ:

أَنَا مِنْ ذَوِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ... مِنْ نَبْعَةٍ فِيهِمْ زَكِيَّةٌ
سَخْفَ الزَّمَانِ وَأَهْلُهُ ... فَرَكِبْتُ مِنْ سَخْفِي مَطِيَّةَ
الْمَقَامَةِ الْوَعْظِيَّةِ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ:

بَيْنَا أَنَا بِالْبَصْرَةِ أَمِيسُ، حَتَّى أَذَانِي السَّيْرِ إِلَى فُرْصَةٍ قَدْ كَثُرَ فِيهَا قَوْمٌ عَلَى قَائِمٍ يَعْظُهُمْ وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَمْ تُتْرَكُوا سُدَى، وَإِنَّ مَعَ الْيَوْمِ غَدًا، وَإِنَّكُمْ وَارِدُو هُوَّةٍ، فَأَعْدُوا لَهَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، وَإِنَّ بَعْدَ الْمَعَاشِ مَعَادًا، فَأَعْدُوا لَهُ زَادًا، أَلَا لَا غَدْرَ فَقَدْ بَيَّنْتَ لَكُمْ الْمَحْجَّةَ، وَأَخَذْتَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، مِنَ السَّمَاءِ بِالْحَبْرِ، وَمِنَ الْأَرْضِ بِالْعَبْرِ، أَلَا وَإِنَّ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ عَلِيمًا، يُحْيِي الْعِظَامَ رَمِيمًا، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ جَهَازٍ، وَقَطْرَةٌ جَوَازٍ، مَنْ عَبَّرَهَا سَلِمَ، وَمَنْ عَمَّرَهَا نَدِمَ، أَلَا وَقَدْ نَصَبْتَ لَكُمْ الْفَخَّ وَنَثَرْتَ لَكُمْ الْحَبَّ؛ فَمَنْ يَرْتَعِ، يَقَعُ، وَمَنْ يَلْقُطُ، يَسْقُطُ، أَلَا وَإِنَّ الْفَقْرَ حَلِيَّةٌ نَبِيكُمُ فَانْكُسُوها، وَالغِنَى حُلَّةٌ الطُّغْيَانِ فَلَا تَلْبَسُوها، كَذَبْتَ طُنُونَ الْمُلْحِدِينَ، الَّذِينَ جَحَدُوا الدِّينَ، وَجَعَلُوا الْقُرْآنَ عَضِينَ إِنْ بَعْدَ الْحَدَثِ جَدَثًا، وَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا، فَحَذَارِ حَرِّ النَّارِ، وَبَدَارِ عَقْبِي الدَّارِ، أَلَا وَإِنَّ الْعِلْمَ أَحْسَنُ عَلَى عِلَاتِهِ، وَالْجَهْلَ أَقْبَحُ عَلَى حَالَتِهِ وَإِنَّكُمْ أَشَقَى مَنْ أَظْلَمَهُ السَّمَاءُ، إِنْ شَقِي بِكُمْ الْعُلَمَاءُ، النَّاسُ بِأَيْمَتِهِمْ، فَإِنْ انْقَادُوا بِأَيْمَتِهِمْ، نَجُوا بِدَيْمَتِهِمْ، وَالنَّاسُ رَجُلَانِ: عَالِمٌ يَرْعَى، وَمُتَعَلِّمٌ يَسْعَى، وَالْبَاقُونَ هَامِلٌ نَعَامٍ، وَرَاتِعٌ أَنْعَامٍ، وَيَلُّ عَالَ أَمْرٍ مِنْ سَافِلِهِ، وَعَالِمٌ شَيْءٍ مِنْ جَاهِلِهِ، وَقَدْ سَمِعْتِ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ كَانَ قَائِمًا يَعْظُ النَّاسَ وَيَقُولُ: يَا نَفْسُ حَتَّامٌ إِلَى الْحَيَاةِ رُكُوتُكَ، وَإِلَى الدُّنْيَا وَعِمَارَتُهَا سُكُوتُكَ؟ أَمَا اعْتَبِرْتِ بِمَنْ مَضَى مِنْ أَسْلَافِكَ، وَبِمَنْ وَارَثَهُ الْأَرْضُ مِنَ الْأَلْفِكَ، وَمَنْ فُجِعَتْ بِهِ مِنْ إِخْوَانِكَ، وَنُقِلَ إِلَى دَارِ الْبَلَى مِنْ أَقْرَانِكَ؟؟

فَهُمْ فِي بَطُونِ الْأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِهَا ... مَحَاسِنُهُمْ فِيهَا بَوَالِ دَوَائِرِ
خَلَّتْ دُورُهُمْ مِنْهُمْ وَأَقْوَتِ عِرَاصُهُمْ سَاقَتُهُمْ نَحْوَ الْمَنَايَا الْمَقَادِرِ

وخلّوا عن الدنيا وما جمّعوا لها وضمتهم تحت التراب الحفائر
كم اختلست أيدي المتون، من قرون بعد قرون؟ وكم غيرت بيلاها، وغيت أكثر الرجال في ثراها؟؟؟
وأنت على الدنيا مكب منفس ... لخطابها فيها حريص مكائر
على خطر تمشي وتصبح لاهيا ... أتدري بماذا لو عقلت تحاطر
وإن امرأ يسعى لدنياه جاهدا ... ويذهل عن أخراه لا شك خاسر
انظر إلى الأمم الخالية، والملوك الفانية، كيف انتسفتهم الأيام، وأفناهم الحمام؟ فأنمحت آثارهم، وبقيت
أخبارهم.

فأضحوا رهيمًا في التراب وأفقرتمجالس منهم عطلت ومفاصر
وخلّوا عن الدنيا وما جمّعوا بها وما فاز منهم غير من هو صابر
وحلوا بدار لا تراور بينهم ... وأنى لسكان القبور التراور
فما إن ترى إلا رموساً نورا بهامسطحة تسفي عليها الأعاصر
كم عاينت من ذي عزّة وسلطان، وجنود وأعوان، قد تمكن من دنياه، ونال منها مناه، فبنى الحصون
والدساكر، وجمع الأغلاق والعساكر
فما صرفت كف المنية إذ أتت ... مبادرة تهوى إليه الدخائر

ولا دفعت عنه الحصون التي بنى ... وحفت بها أنهارها والدساكر
ولا فارعت عنه المنية حيلة ... ولا طمعت في الذب عنه العساكر
يا قوم الحذر الحذر، واليدار البدار، من الدنيا ومكايدها، وما نصبت لكم من مصايدها، وتجلت لكم من
زيبتها، واستشرقت لكم من بهجتها.

وفي دون ما عاينت من فجعاتها ... إلى رفضها داع وبالزهد أمر
فجد ولا تغفل فعيشك بائد ... وأنت إلى دار المنية صائر
ولا تطلب الدنيا فإن طلابها ... وإن نلت منها رغبة لك ضائر
وكيف يحرض عليها لبيب، أو يسر بها أريب، وهو على ثقة من فنانها؟ ألا تعجبون ممن ينام وهو يخشى
الموت، ولا يرجو الفوت؟

ألا، لا، ولكننا نغر نفوسنا ... وتشتعلها اللذات عما نحاذر
وكيف يلد العيش من هو موقنموقف عدل حيث تلبى السرائر
كأنا ترى أن لا نشور، وأنناسدى، ما لنا بعد الفناء مصائر!
كم غرت الدنيا من مخلد إليها وصرعت من مكب عليها؛ فلم تنعش من عشرته؟ ولم ثقله من صرعيه، ولم
تداوه من سقمه، ولم تشفه من ألمه.

بلى أوردته بعد عز ورفعة ... موارد سوء ما لهن مصادر
فلما رأى أن لا نجاة وأتههو الموت لا ينجيه منه الموارز

تَدَمَّ لَوْ أَعْنَاهُ طُولُ نَدَامَةٍ ... عَلَيْهِ وَأَبْكَئُهُ الذُّنُوبُ الْكَبَائِرُ
بَكَى عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَطَايَاهُ، وَتَحَسَّرَ عَلَى مَا خَلَفَ مِنْ دُنْيَاهُ، حَيْثُ لَمْ يَنْفَعَهُ الْإِسْتِعْبَارُ، وَلَمْ يُنْجِهِ
الْإِعْتِدَارُ.

أَحَاطَتْ بِهِ أَحْزَانُهُ وَهُمُومُهُ ... وَأَبْلَسَ لَمَّا أَعْجَزَتْهُ الْمَعَاذِرُ
فَلَيْسَ لَهُ مِنْ كُرْبَةِ الْمَوْتِ فَارِجٌ ... وَلَيْسَ لَهُ مِمَّا يُحَازِرُ نَاصِرٌ
وَقَدْ خَسَّتْ فَوْقَ الْمَنِيَّةِ نَفْسُهُتَرَدُّدَهَا مِنْهُ اللَّهُ وَالْحَنَاجِرُ
فَالِي مَتَى تُرْفَعُ بِأَخْرَتِكَ دُنْيَاكَ، وَتَرَكَبُ فِي ذَلِكَ هَوَاكَ؟ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفَ الْيَقِينِ، يَا رَاقِعَ الدُّنْيَا بِالْدُّنْيَانِ، أَبْهَذَا
أَمْرَكَ الرَّحْمَنُ، أَمْ عَلَى هَذَا ذَلِكَ الْقُرْآنُ؟
تُخَرَّبُ مَا بِيَقِي، وَتَعْمُرُ فَانِيَاً ... فَلَا ذَلِكَ مَوْفُورٌ، وَلَا ذَلِكَ عَامِرٌ
فَهَلْ لَكَ إِنْ وَأَفَاكَ حَتُّكَ بَعْتَهُ وَلَمْ تَكْتَسِبْ خَيْرًا لَدَى اللَّهِ عَازِرٌ؟
أَتَرْضَى بِأَنْ تُقْضَى الْحَيَاةُ وَتَنْقُضِي ... وَدَيْنِكَ مَنْقُوصٌ وَمَالِكَ وَافِرٌ؟

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ لِبَعْضِ الْحَاضِرِينَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: غَرِيبٌ قَدْ طَرَأَ لَا أَعْرِفُ شَخْصَهُ، فَاصْبِرْ عَلَيْهِ
إِلَى آخِرِ مَقَامَتِهِ، لَعَلَّهُ يُنَبِّئُ بِعِلَامَتِهِ، فَصَبِرْتُ فَقَالَ: زَيَّنُوا الْعِلْمَ بِالْعَمَلِ، وَاشْكُرُوا الْقُدْرَةَ بِالْعَفْوِ، وَخُذُوا
الصَّفْوَ وَدَعُوا الْكُدْرَ، يَغْفِرِ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ، ثُمَّ أَرَادَ الدَّهَابَ، فَمَضَيْتُ عَلَى أَثَرِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ يَا شَيْخُ؟
فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! لَمْ تَرْضَ بِالْحَلِيَّةِ غَيْرَتَهَا، حَتَّى عَمَدْتَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ فَأَنْكَرْتَهَا! أَنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ،
فَقُلْتُ: حَفِظَكَ اللَّهُ، فَمَا هَذَا الشَّيْبُ؟ فَقَالَ:

نَذِيرٌ، وَلَكِنَّهُ سَاكِتٌ ... وَضَعِيفٌ، وَلَكِنَّهُ شَامِتٌ
وَأَشْخَاصُ مَوْتٍ، وَلَكِنَّهُ ... إِلَى أَنْ أَشِيعَهُ تَابِتٌ
الْمَقَامَةُ الْأَسْوَدِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: كُنْتُ أَتُهُمْ بِمَالِ أَصْبَتِهِ، فَهَمْتُ عَلَى وَجْهِي هَارِيًا حَتَّى أَتَيْتُ الْبَادِيَةَ فَادْتَنِي
الْهِيمَةُ، إِلَى ظِلِّ خَيْمَةٍ، فَصَادَفْتُ عِنْدَ أَطْنَابِهَا فَتَى، يَلْعَبُ بِالْثُرَابِ، مَعَ الْأَثْرَابِ، وَيُنْشِدُ شِعْرًا يَقْتَضِيهِ حَالُهُ،
وَلَا يَقْتَضِيهِ ارْتِجَالُهُ، وَأَبْعَدْتُ أَنْ يُلْحِمَ نَسِيحَهُ، فَقُلْتُ: يَا فَتَى الْعَرَبِ أَتُرْوِي هَذَا الشُّعْرَ أَمْ تَعَزِّمُهُ؟ فَقَالَ:
بَلْ أَعَزِّمُهُ، وَأُنْشِدُ يَهْوُلُ:

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ ... وَكَانَ فِي الْعَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي
فَإِنَّ شَيْطَانِي أَمِيرُ الْجَنِّ ... يَذْهَبُ بِي فِي الشُّعْرِ كُلِّ فَنٍّ

حَتَّى يَرُدَّ عَارِضَ التَّطْنِي ... فَاْمُضْ عَلَى رِسْلِكَ وَاغْرُبْ عَنِّي
فَقُلْتُ: يَا فَتَى الْعَرَبِ أَدْتَنِي إِلَيْكَ خَيْفَةً فَهَلْ عِنْدَكَ أَمْنٌ أَوْ قَرِيٌّ؟ قَالَ: بَيْتَ الْأَمْنِ نَزَلْتُ، وَأَرْضَ الْقَرِيِّ
حَلَلْتُ، وَقَامَ فَعَلِقَ بِكُمِّي، فَمَشَيْتُ مَعَهُ إِلَى خَيْمَةٍ قَدْ أُسْبِلَ سِتْرُهَا، ثُمَّ نَادَى: يَا فَتَاةَ الْحَيِّ، هَذَا جَارٌ نَبَتْ بِهِ
أَوْطَانُهُ، وَظَلَمَهُ سُلْطَانُهُ، وَحَدَاهُ إِلَيْنَا صَيْتٌ سَمِعَهُ، أَوْ ذِكْرٌ بَلَعَهُ، فَأَجِيبِيهِ، فَقَالَتِ الْفَتَاةُ: اسْكُنْ يَا حَضْرِي.
أَيَا حَضْرِي اسْكُنْ وَلَا تَخْشَ خَيْفَةً ... فَأَنْتَ بَيْتِ الْأَسْوَدِ بْنِ قِنَانِ

أَعَزُّ ابْنِ أُنْتِي مِنْ مَعَدٍ وَيَعْرُبٍ ... وَأَوْفَاهُمْ عَهْدًا بِكُلِّ مَكَانٍ
وَأَضْرَبَهُمْ بِالسِّيفِ مِنْ دُونِ جَارِهِ ... وَأَطْعَنَهُمْ مِنْ دُونِهِ بِسِنَانٍ
كَانَ الْمَنَايَا وَالْعَطَايَا بِكَفِّهِ ... سَحَابَانِ مَقْرُونَانِ مُؤْتَلِفَانِ
وَأَيْضُ وَصَاحِ الْجَبِينِ إِذَا انْتَمَى ... تَلَاقِي إِلَى عَيْصِ أَعْرَ يَمَانِي
فَدُونُكَ يَتَّ الْجَوَارِ وَسَبْعَةٌ ... يَحْلُوهُ شَفَعَتُهُمْ بِنَمَانٍ
فَأَخَذَ الْفَتَى بِيَدِي إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي أُوْمَاتُ إِلَيْهِ، فَظَنَرْتُ فَإِذَا سَبْعَةٌ نَفَرٌ فِيهِ، فَمَا أَخَذَتْ عَيْنِي إِلَّا أَبَا الْفَتْحِ
الْإِسْكَندَرِيَّ فِي جُمْلَتِهِمْ فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ بَأَيِّ أَرْضٍ أَنْتَ؟ فَقَالَ:
نَزَلْتُ بِالْأَسْوَدِ فِي دَارِهِ ... أَخْتَارُ مِنْ طَيِّبِ أَثْمَارِهَا
فَقُلْتُ: إِنِّي رَجُلٌ خَائِفٌ ... هَامَتُ بِي الْخِيفَةُ مِنْ نَارِهَا
حِيلَةٌ أَمْثَالِي عَلَى مِثْلِهِ ... فِي هَذِهِ الْحَالِ وَأَطْوَارِهَا
حَتَّى كَسَانِي جَابِرًا خَلْتِي ... وَمَاحِيًا بَيْنَ آثَارِهَا
فَخُذْ مِنَ الدَّهْرِ وَتَلْ مَا صَفَا ... مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْقَلَّ عَنْ دَارِهَا
إِيَّاكَ أَنْ تُبْقِيَ أُمْنِيَّةً ... أَوْ تَكْسَعَ الشُّوْلَ بِأَغْبَارِهَا
قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُلْتُ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيُّ طَرِيقِ الْكُدْيَةِ لَمْ تَسْلُكْهَا؟ ثُمَّ عَشْنَا زَمَانًا فِي ذَلِكَ الْجَنَابِ
حَتَّى أَمِنَّا، فَرَأَحَ مُشْرِقًا وَرُحْتَ مُعْرَبًا.
المَقَامَةُ الْعِرَاقِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: طَفْتُ الْآفَاقَ، حَتَّى بَلَغْتُ الْعِرَاقَ، وَتَصَفَّحْتُ دَوَابِنَ الشُّعْرَاءِ، حَتَّى ظَنَنْتِي لَمْ
أَبْقِ فِي الْقَوْسِ مِنْزَعٌ ظَفِرٌ، وَأَحَلَّتْنِي بَعْدَادُ فَبَيْنَمَا أَنَا عَلَى الشَّطِّ إِذْ عَنَّ لِي فَتَى فِي أَطْمَارٍ، يَسْأَلُ النَّاسَ
وَيَحْرُمُونَهُ، فَأَعَجَبْتَنِي فَصَاحْتُهُ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ أَسْأَلُهُ عَنْ أَصْلِهِ وَدَارِهِ، فَقَالَ: أَنَا عَبْسِي الْأَصْلُ إِسْكَندَرِيُّ الدَّارِ،
فَقُلْتُ: مَا هَذَا اللَّسَانُ؟ وَمِنْ أَيْنَ هَذَا الْبَيَانُ؟ فَقَالَ: مِنَ الْعِلْمِ، رُضْتُ صِعَابَهُ؟ وَخُضْتُ بَحَارَهُ، فَقُلْتُ: بَأَيِّ
الْعُلُومِ تَتَحَلَّى؟ فَقَالَ: لِي فِي كُلِّ كِنَانَةٍ سَهْمٌ فَأَيُّهَا تُحْسِنُ؟ فَقُلْتُ: الشُّعْرُ. فَقَالَ: هَلْ قَالَتِ الْعَرَبُ بَيْنَنَا لَا
يُمْكِنُ حَلُّهُ؟ وَهَلْ نَظَمْتَ مَدْحًا لَمْ يُعْرِفْ أَهْلُهُ؟ وَهَلْ لَهَا بَيْتٌ سَمِحٌ وَضَعُهُ، وَحَسَنٌ قَطْعُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يَرَفَأُ
دَمْعُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَنْقَلُ وَقَعُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَشُجُّ عَرَضُهُ وَيَأْسُو صَرَبُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَعْظُمُ وَعَيْدُهُ وَيَصْغُرُ خَطْبُهُ؟
وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ أَكْثَرُ رَمَلًا مِنْ يَبْرِينَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ كَأَسَنَانِ الْمَظْلُومِ، وَالْمِنْشَارِ الْمَثْلُومِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَسْرُكُ أَوْلَاهُ
وَيَسْوَعُكَ آخِرُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَصْنَعُكَ بَاطِنُهُ، وَيَخْدَعُكَ ظَاهِرُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يُخْلَقُ سَامِعُهُ، حَتَّى تُدْكَرَ
جَوَامِعُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يُمْكِنُ لِمَسَّهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَسْهَلُ عَكْسُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ أَطْوَلُ مِنْ مِثْلِهِ، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِهِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ مَهِينٌ بِحَرْفٍ، وَرَهِينٌ بِحَدْفٍ؟؟ قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَوَ اللَّهُ مَا أَجَلْتُ قَدْحًا فِي جَوَابِهِ،
وَلَا اهْتَدَيْتُ لَوَجْهِ صَوَابِهِ، إِلَّا لَا أَعْلَمُ. فَقَالَ: وَمَا لَا تَعْلَمُ أَكْثَرُ، فَقُلْتُ: وَمَا لَكَ مَعَ هَذَا الْفَضْلِ، تَرْضَى
بِهَذَا الْعَيْشِ الرَّذَلِ؟ فَأَنْشَأُ يَقُولُ:

بُؤْسًا لِهَذَا الزَّمَانِ مِنْ زَمَنِ ... كُلُّ تَصَارِيفِ أَمْرِهِ عَجَبٌ

أَصْبَحَ حَرْبًا لِكُلِّ ذِي أَدَبٍ ... كَأَنَّمَا سَاءَ أُمَّهُ الْأَدَبُ
فَأَجَلْتُ فِيهِ بَصْرِي، وَكَرَّرْتُ فِي وَجْهِهِ نَظْرِي، فَإِذَا هُوَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ، فَقُلْتُ: حَيَّاكَ اللَّهُ وَأَنْعَشَ
صَرَغَكَ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَمُنَّ عَلَيَّ بِتَفْسِيرِ مَا أَنْزَلْتُ، وَتَقْصِيلِ مَا أَجْمَلْتُ، فَعَلْتَ، فَقَالَ: تَفْسِيرُهُ: أَمَّا الْبَيْتُ لَا
يُمْكِنُ حَلُّهُ فَكَثِيرٌ، وَمِثَالُهُ قَوْلُ الْأَعَشَى:

دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ ... فَلَا تَحْبَسْنَا بِنَتَقَادِهَا
وَأَمَّا الْمَدْحُ الَّذِي لَمْ يُعْرَفْ أَهْلُهُ فَكَثِيرٌ، وَمِثَالُهُ قَوْلُ الْهَدَلِيِّ:
وَلِمَ إِدْرِمَنَّ أَلْفَى عَلَيَّ رِدَاءَهُ عَلَيَّ أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنِّي مَا جَدِ مَحْضُ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي سَمَّحَ وَضَعَهُ، وَحَسَنَ قَطْعَهُ، فَهَوَّلَ أَبِي نُوَّاسٍ:
فَبِتْنَا يَرَانَا اللَّهُ شَرَّ عِصَابَةٍ ... تُجَرَّرُ أَذْيَالُ الْفُسُوقِ، وَلَا فَخْرُ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يَرَفَأُ دَمْعُهُ فَقَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:
مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ ... كَأَنَّهُ مِنْ كَلْبِي مَفْرِيَةٍ سَرَبَ
فَإِنَّ جَوَامِعَهُ: إِمَّا مَاءٌ، أَوْ عَيْنٌ، أَوْ انْسِكَابٌ، أَوْ بَوْلٌ، أَوْ نَشِيئَةٌ، أَوْ اسْفَلُ مَزَادَةٍ، أَوْ شِقٌّ، أَوْ سِيْلَانٌ.
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يُفْعَلُ وَقَعُهُ فَمِثْلُ قَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ:
إِذَا مَنْ لَمْ يَمُنَّ بِمَنْ يَمُنُّهُوَ قَالَ لِنَفْسِي: أَيُّهَا النَّفْسُ أَهْمَلِي
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي تَشَجُّ عَرُوضُهُ وَيَأْسُو ضَرْبُهُ فَمِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

دَلَفْتُ لَهُ بِأَبْيَضٍ مَشْرِفِي ... كَمَا يَدْتُو الْمُصَافِحُ لِلسَّلَامِ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَعْظُمُ وَعِيدُهُ وَيَصْغُرُ خَطْبُهُ فَمِثَالُهُ قَوْلُ عَمْرٍو ابْنِ كُثُومٍ:
كَأَنَّ سَيْوْفَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ ... مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لَاعِينَا
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ رَمَالًا مِنْ يَبْرِينَ فَمِثْلُ قَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:
مُعْرُورِيًّا رَمَضَ الرِّضْرَاضُ يَرُكُضُهُو الشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا فِي الْجَوِّ تَدْوِيمُ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ كَأَسْنَانَ الْمُظْلُومِ، وَالْمُنْشَارِ الْمُتْلُومِ؛ فَكَقَوْلِ الْأَعَشَى:
وَقَدْ عَدَوْتُ إِلَى الْحَائُوتِ يَتْبَعْنِي ... شَاوٍ مِثْلُ شُلُولٍ شُلْشُلٍ شَوْلُ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَسْرُكُ أَوَّلُهُ وَيَسْوُوكُ آخِرُهُ فَكَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:
مَكْرٌ مَفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَاكُجَلْمُودٌ صَخْرٌ حَطَّةُ السَّبِيلِ مِنْ عَلٍ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَصْفَعُكَ بَاطِنُهُ وَيَخْدَعُكَ ظَاهِرُهُ فَكَقَوْلِ الْقَائِلِ:
عَاتَبْتَهَا فَبَكَتْ، وَقَالَتْ يَا فَتَى ... نَجَاكَ رَبُّ الْعَرْشِ مِنْ عَتْيِي
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يُخْلَقُ سَامِعُهُ، حَتَّى تُذَكَّرَ جَوَامِعُهُ، فَكَقَوْلِ طَرْفَةَ:
وَقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئْتُهُمْ يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَلَّدِ
فَإِنَّ السَّمْعَ يَطُنُّ أَنْكَ تُنْشِدُ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ:
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ لِمُسَّهُ فَكَقَوْلِ الْحُبْرَزِيِّ:

تَقَشَّعَ غَيْمُ الْمَجْرِ عَنْ قَمَرِ الْحَيَوِّ اشْرَقَ نُورُ الصُّلْحِ مِنْ ظُلْمَةِ الْعَتَبِ
وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ:

نَسِيمُ عَيْبِرٍ فِي غِلَالَةِ مَاءٍ ... وَتَمَثَالُ نُورٍ فِي أَدِيمٍ هَوَاءٍ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَسْهَلُ عَكْسُهُ فَكَقَوْلُ حَسَّانَ:

بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ ... شَمُّ الْأَتُوفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ أَطْوَلُ مِنْ مِثْلِهِ فَكَحَمَاقَةِ الْمُتَّبِيِّ:

عِشْ ابْنِ اسْمِ سُدٍّ جُدُّ قُدٍّ مُرٌّ أَنَّهُ اسْرُفُهُ تُسْلَعُظِ ارْمِ صِيبِ احْمِ اغْرُ اسْبِ رُغِ زَعِ دِلِ ابْنِ نَلِّ
وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ مَهِينٌ بِحَرْفٍ، وَرَهِينٌ بِحَذْفٍ، فَكَقَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ:

لَقَدْ ضَاعَ شِعْرِي عَلَى بَابِكُمْ ... كَمَا ضَاعَ دُرٌّ عَلَى خَالِصَةٍ
وَكَقَوْلِ الْآخَرِ:

إِنَّ كَلَامًا تَرَاهُ مَدْحًا ... كَانَ كَلَامًا عَلَيْهِ ضَاءٌ

يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا أَنْشَدَ " ضَاعًا " كَانَ هِجَاءً، وَإِذَا أَنْشَدَ " ضَاءً " كَانَ مَدْحًا.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَتَعَجَّبْتُ وَاللَّهِ مِنْ مَقَالِهِ، وَأَعْطَيْتُهُ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى تَغْيِيرِ حَالِهِ، وَأَفْتَرْنَا.
الْمَقَامَةُ الْحَمْدَانِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

حَضَرْنَا مَجْلِسَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ يَوْمًا، وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ فَرَسٌ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ، فَاحْطَنَتْهُ
الْجَمَاعَةُ، وَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: أَيُّكُمْ أَحْسَنَ صِفَتَهُ، جَعَلْتُهُ صِلَتُهُ، فَكُلُّ جَهْدٍ جَهْدُهُ، وَبَدَلَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ:
أَحَدُ خَدْمِيهِ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! رَأَيْتُ بِالْأَمْسِ رَجُلًا يَطُأُ الْفَصَاحَةَ بِنَعْلَيْهِ، وَتَقِفُ الْأَبْصَارُ عَلَيْهِ، يَسْأَلُ النَّاسَ،
وَيَسْتَقِي الْيَاسَ، وَلَوْ أَمَرَ الْأَمِيرُ بِإِحْضَارِهِ، لَفَضَلْتُهُمْ بِحَضَارِهِ، فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: عَلَيَّ بِهِ فِي هَيْبَتِهِ، فَطَارَ
الْخَدْمُ فِي طَلْبِهِ، ثُمَّ جَاءُوا لِلْوَقْتِ بِهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوهُ لِأَيَّةِ حَالٍ دُعِيَ، ثُمَّ قَرَّبَ وَاسْتَدْنَى، وَهُوَ فِي طَمَرَيْنِ قَدْ
أَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمَا وَشَرِبَ، وَحِينَ حَضَرَ السَّمَاطَ، لَثَمَ الْبَسَاطَ، وَوَقَفَ، فَقَالَ: سَيْفُ الدَّوْلَةِ: بَلَعْتُنَا عَنْكَ
عَارِضَةً فَأَعْرَضَهَا فِي هَذَا الْفَرَسِ وَوَصَفِيهِ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ كَيْفَ بِهِ قَبْلَ رُكُوبِهِ وَوُتُوبِهِ، وَكَشَفَ
عَيْبُوهَ وَغَيْبُوهَ؟ فَقَالَ: ارْكَبْهُ، فَارْكَبْهُ وَأَجْرَاهُ، ثُمَّ قَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ هُوَ طَوِيلُ الْأُذُنَيْنِ، قَلِيلُ الْإِثْنَيْنِ،
وَاسِعُ الْمَرَاتِ، لَيِّنُ الثَّلَاثِ، غَلِيظُ الْأَكْرُوعِ، غَامِضُ الْأَرْبَعِ، شَدِيدُ النَّفْسِ، لَطِيفُ الْخَمْسِ، ضَيِّقُ الْقَلْتِ، رَفِيقُ
السَّتِّ، حَدِيدُ السَّمْعِ، غَلِيظُ السَّبْعِ، دَقِيقُ اللِّسَانِ، عَرِيضُ الشَّمَانِ، مَدِيدُ الصُّلْعِ، قَصِيرُ التَّسْعِ، وَاسِعُ
الشَّجْرِ، بَعِيدُ الْعَشْرِ، يَأْخُذُ بِالسَّابِحِ، وَيُطَلِّقُ بِالرَّامِحِ. يَطْلُعُ بِبَلَانِحٍ وَيَضْحَكُ عَنْ قَارِحٍ يَجْرُ وَجْهَ الْجَدِيدِ،
بِمَدَاقِ الْحَدِيدِ، يُحْضِرُ كَالْبَحْرِ إِذَا مَاجَ، وَالسَّبِيلِ إِذَا هَاجَ، فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: لَكَ الْفَرَسُ مُبَارَكًا فِيهِ،
فَقَالَ: لَا زِلْتَ تَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ، وَتَمْنَحُ الْأَفْرَاسَ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَتَبِعْتُهُ وَقُلْتُ لَكَ عَلَيَّ مَا يَلِيْقُ بِهَذَا الْفَرَسِ، ثُمَّ
انْصَرَفَ وَتَبِعْتُهُ وَقُلْتُ لَكَ عَلَيَّ مَا يَلِيْقُ بِهَذَا الْفَرَسِ مِنْ خِلْعَةٍ إِنْ فَسَّرْتَ مَا وَصَفْتَ، فَقَالَ: سَلْ عَمَّا
أَحْبَبْتَ، فَقُلْتُ: مَا مَعْنَى قَوْلِكَ بَعِيدُ الْعَشْرِ، فَقَالَ: بَعِيدُ النَّظَرِ وَالْخَطْوِ وَأَعَالِي اللَّحْيَيْنِ، وَمَا بَيْنَ الْوَقْيَيْنِ،

وَالْجَاعِرَتَيْنِ، وَمَا بَيْنَ الْغُرَابَيْنِ وَالْمُنْخَرَيْنِ، وَمَا بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ، وَمَا بَيْنَ الْمَتَبِّ وَالصَّفَاقِ، بَعِيدُ الْغَايَةِ فِي السَّبَاقِ، فَقُلْتُ: لَا فُصُّ فُوكَ فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ قَصِيرُ التَّسْعِ، قَالَ: قَصِيرُ الشَّعْرَةِ قَصِيرُ الْأُطْرَةِ قَصِيرُ الْعَسِيبِ، قَصِيرُ الْعَضُدَيْنِ، قَصِيرُ الرُّسْعَيْنِ، قَصِيرُ النَّسَا، قَصِيرُ الظَّهْرِ، قَصِيرُ الْوَطِيفِ. قُلْتُ: لِلَّهِ أَنْتَ فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: عَرِيضُ الثَّمَانِ؟ قَالَ: عَرِيضُ الْجَبْهَةِ، عَرِيضُ الْوَرِكِ، عَرِيضُ الصَّهْوَةِ، عَرِيضُ الْكَتِفِ، عَرِيضُ الْجَنْبِ، عَرِيضُ الْعَصَبِ، عَرِيضُ الْبَلْدَةِ، عَرِيضُ صَفْحَةِ الْعُنُقِ. قُلْتُ: أَحْسَنْتَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: غَلِيظُ السَّيِّحِ؟ قَالَ: غَلِيظُ الدَّرَاعِ، غَلِيظُ الْمَحْرَمِ، غَلِيظُ الْعُكُورَةِ، غَلِيظُ الشَّوَى، غَلِيظُ الرُّسْغِ، غَلِيظُ الْفَخْذَيْنِ، غَلِيظُ الْحَاذِ. قُلْتُ: لِلَّهِ دَرُكُ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: رَقِيقُ السَّتِّ؟ قَالَ: رَقِيقُ الْجَفْنِ، رَقِيقُ السَّالِفَةِ، رَقِيقُ الْجَحْفَلَةِ، رَقِيقُ الْأَدِيمِ، رَقِيقُ أَعَالِي الْأَذُنَيْنِ، رَقِيقُ الْعُرْضَيْنِ. قُلْتُ: أَجَدْتَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: لَطِيفُ الْحَمْسِ؟ فَقَالَ: لَطِيفُ الزُّورِ، لَطِيفُ النَّسْرِ، لَطِيفُ الْجَبْهَةِ، لَطِيفُ الرُّكْبَةِ، لَطِيفُ الْعُجَايَةِ. قُلْتُ: حَيَّاكَ اللَّهُ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: غَامِضُ الْأَرْبَعِ؟

قَالَ: غَامِضُ أَعَالِشِي الْكَتِفَيْنِ، غَامِضُ الْمَرْفَقَيْنِ، غَامِضُ الْحِجَاجَيْنِ، غَامِضُ الشَّطْيِ. قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ لَيْنُ الثَّلَاثِ، قَالَ: لَيْنُ الْمَرْدَعَتَيْنِ لَيْنُ الْعُرْفِ لَيْنُ الْعِنَانِ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ قَلِيلُ الْإِثْنِ قَالَ: قَلِيلُ لَحْمِ الْوَجْهِ قَلِيلُ لَحْمِ الْمَتْنَيْنِ، قُلْتُ: فَمَنْ أَيْنَ مَنِبْتُ هَذَا الْفَضْلِ؟ قَالَ: مِنَ الثُّغُورِ الْأَمْوِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْإِسْكَانَرِيَّةِ، فَقُلْتُ: أَنْتَ مَعَ هَذَا الْفَضْلِ تُعَرِّضُ وَجْهَكَ لِهَذَا الْبَذْلِ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:
سَاخِفْ زَمَانِكَ جِدًّا ... إِنَّ الزَّمَانَ سَخِيفٌ
دَعِ الْحَمِيَّةَ نَسِيًّا ... وَعِشْ بِخَيْرٍ وَرِيفٌ
وَقُلْ لِعَبْدِكَ هَذَا ... يَجِئُنَا بِرَغِيفِ
الْمَقَامَةِ الرَّصَافِيَّةِ
حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

خَرَجْتُ مِنَ الرَّصَافَةِ أُرِيدُ دَارَ الْخِلَافَةِ، وَحَمَارَةٌ الْقَيْظِ تَعْلِي بِصَلْرِ الْعَيْظِ، فَلَمَّا نَصَفْتُ الطَّرِيقَ اشْتَدَّ الْحَرُّ وَأَعْوَزَنِي الصَّبْرُ فَمِلْتُ إِلَى مَسْجِدٍ قَدْ أَخَذَ مِنْ كُلِّ حُسْنِ سِرِّهِ وَفِيهِ قَوْمٌ يَتَمَلَّلُونَ سُقُوفَهُ وَيَتَدَاكِرُونَ وَقُوفَهُ، وَأَدَّاهُمْ عَجْزُ الْحَدِيثِ إِلَى ذِكْرِ اللَّصُوصِ وَحِيلِهِمْ وَالطَّرَارِينَ وَعَمَلِهِمْ، فَذَكَرُوا أَصْحَابَ الْفُصُوصِ مِنَ اللَّصُوصِ وَأَهْلَ الْكَفِّ وَالْقَفِّ وَمَنْ يَعْمَلُ بِالطَّفِّ، وَمَنْ يَحْتَالُ فِي الصَّفِّ، وَمَنْ يَخْتِقُ بِالذَّفِّ، وَمَنْ يَكْمُنُ فِي الرَّفِّ، إِلَى أَنْ يُمَكِّنَ اللَّفَّ، وَمَنْ يُبَدِّلُ بِالْمَسْحِ، وَمَنْ يَأْخُذُ بِالْمَرْحِ، وَمَنْ يَسْرِقُ بِالصُّحِّ، وَمَنْ يَدْعُو إِلَى الصُّلْحِ، وَمَنْ قَمَشَ بِالصَّرْفِ، وَمَنْ أَعَسَ بِالطَّرْفِ، وَمَنْ بَاهَتَ بِالنَّرْدِ، وَمَنْ غَالَطَ بِالْقَرْدِ، وَمَنْ كَابَرَ بِالرِّيْطِ، مَعَ الْإِبْرَةِ وَالْحَيْطِ، وَمَنْ جَاءَكَ بِالْقَفْلِ، وَمَنْ شَقَّ الْأَرْضَ مِنْ سُئْلِ، وَمَنْ نَوَّمَ بِالْبَنْجِ، أَوْ احْتَالَ بِنِيرْنَجٍ، وَمَنْ بَدَّلَ نَعْلَيْهِ، وَمَنْ شَدَّ بِحَبْلَيْهِ، وَمَنْ كَابَرَ بِالسَّيْفِ، وَمَنْ يَصْعَدُ فِي الْبَيْرِ وَمَنْ سَارَ مَعَ الْعَيْرِ، وَأَصْحَابُ الْعَلَامَاتِ وَمَنْ يَأْتِي الْمَقَامَاتِ وَمَنْ فَرَّ مِنَ الطُّوفِ وَمَنْ لَادَ مِنَ الْخُوفِ وَمَنْ طَيَّرَ بِالطَّيْرِ وَمَنْ

لَاعَبَ بِالسَّيْرِ وَقَالَ: اجْلِسْ وَلَا ضَيْرٌ وَمَنْ يَسْرِقُ بِالْبَوْلِ وَمَنْ يَنْتَهِزُ الْهَوْلَ وَمَنْ أَطْعَمَ فِي السُّوقِ بِمَا يَنْفُخُ
 فِي الْبُوقِ وَمَنْ جَاءَ بِسْتُوقٍ ، وَأَصْحَابُ الْبَسَاتِينِ وَسُرَاقُ الرُّوَازِينِ وَمَنْ ضَبَرَ فِي الصَّرْحِ وَمَنْ سَلَّمَ فِي
 السُّطْحِ وَمَنْ دَبَّ بِسِكِّينٍ عَلَى الْحَائِطِ مِنْ طِينٍ وَمَنْ جَانَكَ فِي الْحَيْنِ يُحْيِي بِالرِّيَّاحِينَ وَأَصْحَابُ الطَّبْرَزِينِ
 كَأَعْوَانِ الدَّوَاوِينِ وَمَنْ دَبَّ بِأَنْبِنٍ عَلَى رَسْمِ الْمَجَانِينِ وَأَصْحَابُ الْمَفَاتِيحِ وَأَهْلُ الْقُطْنِ وَالرِّيْحِ، وَمَنْ يَفْتَنَحُ
 الْبَابَ، عَلَى زِيٍّ مِنْ اثْنَابٍ، وَمَنْ يَدْخُلُ فِي الدَّارِ، عَلَى صُورَةٍ مِنْ زَارٍ، وَمَنْ يَدْخُلُ بِاللِّينِ، عَلَى زِيٍّ
 الْمَسَاكِينِ، وَمَنْ يَسْرِقُ فِي الْحَوْضِ، إِذَا أَمَكَنَ فِي الْحَوْضِ، وَمَنْ سَلَّ بِعُودَيْنِ، وَمَنْ حَلَفَ بِاللِّينِ، وَمَنْ غَالَطَ
 بِالرَّهْنِ، وَمَنْ سَفْتَحَ بِاللِّينِ، وَمَنْ خَالَفَ بِالْكَيْسِ، وَمَنْ زَجَّ بِتَدْلَيْسٍ، وَمَنْ أَعْطَى الْمَفَالَيْسِ، وَمَنْ قَصَّ مِنْ
 الْكَمِّ، وَقَالَ: انظُرْ وَاحْكُمْ، وَمَنْ خَاطَ عَلَى الصَّدْرِ، وَمَنْ قَالَ: أَلَمْ تَدْرُ؟ وَمَنْ عَضَّ، وَمَنْ شَدَّ، وَمَنْ دَسَّ إِذَا
 عَدَّ، وَمَنْ لَجَّ مَعَ الْقَوْمِ وَقَالَ: لَيْسَ ذَا نَوْمٍ وَمَنْ غَرَّكَ بِالْأَلْفِ وَمَنْ زَجَّ إِلَى خَلْفٍ وَمَنْ يَسْرِقُ بِالْقَيْدِ وَمَنْ يَأْلَمُ
 لِلْكَيْدِ وَمَنْ صَافَعَ بِالْتَعْلِ وَمَنْ خَاصَمَ فِي الْحَقِّ وَمَنْ عَاجَلَ بِالشَّقِّ وَمَنْ يَدْخُلُ فِي السَّرْبِ وَمَنْ يَنْتَهِزُ الثَّغْبَ
 وَأَصْحَابُ الْخَطَاطِيفِ عَلَى الْحَبْلِ مِنَ اللَّيْفِ وَانْجَرَّ الْحَدِيثُ إِلَى ذِكْرِ مَنْ رَبِحَ عَلَيْهِمْ ، وَأَتَى بِقِصَّةِ لَأْيِ
 الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ حَذَفْنَاهَا لَعَدَمِ الْفَائِدَةِ فِيهَا مَعَ وجودِ أَلْفَاظِ تَنَافِي آدَابِ هَذِهِ الْأَيَّامِ وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ
 يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ سِوَى أَنْ اللَّيْلَةَ الْهَمْرَاءُ يُقَالُ فِيهَا لَيْلَةٌ فِي غَيْرِ زَيْهَا وَأَنْشُدُ يَقُولُ:

وَطَيْفٌ سَرَى وَاللَّيْلُ فِي غَيْرِ زَيْهِوَإِفَاهُ بَدْرُ التَّمِّ فَأَبْيَضَ مَفْرَقُهُ
 الْمَقَامَةُ الْمَغْرَلِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ وَأَنَا مُتَسِّعُ الصَّيْتِ كَثِيرُ الذِّكْرِ، فَدَخَلَ عَلَيَّ فَتَيَانٌ، فَقَالَ
 أَحَدُهُمَا: أَيَّدَ اللَّهُ الشَّيْخَ، دَخَلَ هَذَا الْفَتَى دَارَنَا، فَأَخَذَ فَتَحَ سُنَّارًا. بِرَأْسِهِ دُورًا، بَوَسِطِهِ زُنَّارًا، وَفَلَكَ دُورًا،
 رَحِيمٌ الصَّوْتِ إِنْ صَرَ، سَرِيْعُ الْكُرِّ إِنْ فَرَّ، طَوِيلُ الدَّيْلِ إِنْ جَرَّ، نَحِيْفُ الْمُنْطَقِ، ضَعِيْفُ الْمَقْرُطِقِ، فِي قَدْرِ
 الْجَزْرِ، مُقِيمٌ بِالْحَضْرِ، لَا يَخْلُو مِنَ السَّفَرِ، إِنْ أُوْدِعَ شَيْئًا رَدًّا، وَإِنْ كَلَّفَ سَيْرًا جَدًّا، وَإِنْ أَجَرَ حَبْلًا مَدًّا، هُنَاكَ
 عَظْمٌ وَخَشَبٌ، وَفِيهِ مَالٌ وَنَشَبٌ، وَقَبْلُ وَبَعْدُ، فَقَالَ الْفَتَى: نَعَمْ أَيَّدَ اللَّهُ الشَّيْخَ لِأَنَّهُ غَضَبَنِي عَلَى:

مُرْهَفٍ سِنَانُهُ ... مُدَلَّقٍ أَسْنَانُهُ

أَوْلَادُهُ أَعْوَانُهُ ... تَفْرِيْقُ شَمْلِ سَنَانُهُ

مُؤَاتِبٌ لِصَاحِبِهِ ... مُعَلَّقٌ بِشَارِبِهِ

مُشْتَبِكُ الْأَثَابِ ... فِي الشَّيْبِ وَالشَّبَابِ

حُلُوٌّ مَلِيْحُ الشَّكْلِ ... ضَاوٍ زَهِيْدُ الْأَكْلِ

رَامٌ كَثِيرُ النَّبْلِ ... حَوْفَ اللَّحْيِ وَالسَّبْلِ

فَقُلْتُ لِلأَوَّلِ: رُدَّ عَلَيْهِ الْمُشْطَ لِيُرِدَّ عَلَيْكَ الْمَغْرَلُ.

الْمَقَامَةُ الشَّيْرَازِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الْيَمَنِ، وَهَمَمْتُ بِالْوَطَنِ، ضَمَّ إِلَيْنَا رَفِيْقٌ رَحْلُهُ، فَتَرَاقْنَا ثَلَاثَةَ
 أَيَّامٍ، حَتَّى جَدَّبَنِي نَجْدٌ، وَالتَّمَمَهُ وَهَدُّ، فَصَعَدْتُ وَصَوَّبْتُ، وَشَرَفْتُ وَغَرَّبْتُ، وَنَدِمْتُ عَلَى مُفَارَقَتِهِ بَعْدَ أَنْ

مَلَكَ الْجَبَلُ وَحَزَنُهُ، وَأَخَذَهُ الْعَوْرُ وَبَطْنُهُ فَوَ اللَّهُ لَقَدْ تَرَكَني فِرَاقُهُ وَأَنَا أَشْتَاقُهُ، وَغَادَرَنِي بَعْدَهُ أَقَاسِي بَعْدَهُ،
وَكُنْتُ فَارِقْتُهُ ذَا شَارَةَ وَجَمَالَ، وَهَيْئَةَ وَكَمَالَ، وَضَرَبَ الدَّهْرُ بِنَا ضُرُوبَهُ، وَأَنَا أَتَمَنُّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ،
وَأَتَذَكَّرُهُ فِي كُلِّ لَمَحَةٍ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ الدَّهْرَ يُسْعِدُنِي بِهِ وَيُسَعِّفُنِي فِيهِ، حَتَّى أَتَيْتُ شِيرَازَ، فَبَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي
حُجْرَتِي إِذْ دَخَلَ كَهْلٌ قَدْ عَبَّرَ فِي وَجْهِهِ الْفَقْرُ، وَأَنْتَرَفَ مَاعَهُ الدَّهْرُ، وَأَمَالَ فَنَاتَهُ السُّقْمُ، وَقَلَّمَ أَظْفَارَهُ الْعَدَمُ،
بِوَجْهِهِ أَكْسَفَ مِنْ بَالِهِ، وَزِيَّ أَوْحَشَ مِنْ حَالِهِ، وَلَفَّةً نَشْفَةَ، وَشَفَةَ قَشْفَةَ، وَرَجُلٌ وَحَلَةٌ، وَيَدٌ مَحَلَةٌ، وَأَنْيَابٌ
قَدْ جَرَعَهَا الصَّرُّ وَالْعَيْشُ الْمُرُّ، وَسَلَّمٌ فَازْدَرْتُهُ عَيْنِي، لِكِنِّي أَجَبْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا خَيْرًا مِمَّا يُظُنُّ بِنَا،
فَبَسَطْتُ لَهُ أَسِيرَةَ وَجْهِهِ، وَفَقَعْتُ لَهُ سَمْعِي، وَقُلْتُ لَهُ: إِيه، فَقَالَ: قَدْ أَرْضَعْتِكَ نُدْيَ حُرْمَةٍ، وَشَارَكْتُكَ عِنَانَ
عِصْمَةٍ، وَالْمَعْرِفَةَ عِنْدَ الْكِرَامِ حُرْمَةً، وَالْمُودَةَ لِحِمَّةٍ، فَقُلْتُ: أَبَلَدِي أَنْتَ أُمَّ عَشِيرِي فَقَالَ مَا يَجْمَعُنَا إِلَّا بَلَدُ
الْعَرَبَةِ وَلَا يَنْظِمُنَا إِلَّا رَحِمُ الْقَرِيبَةِ قُلْتُ: أَيُّ الطَّرِيقِ شَدْنَا فِي قَرْنٍ؟ قَالَ: طَرِيقُ الْيَمَنِ.
قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: قُلْتُ: أَنْتَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ؟ فَقَالَ: أَنَا ذَاكَ، قُلْتُ: شَدَّ مَا هَزَلْتَ بَعْدِي!
وَخُلْتُ عَنْ عَهْدِي! فَاثْفُضْ إِلَيَّ جُمْلَةَ حَالِكَ، وَسَبِّبْ اخْتِلَالَكَ، فَقَالَ: نَكَحْتُ خَضْرَاءَ دِمْنَةَ، وَشَقِيتُ مِنْهَا
بَابْتَةَ، فَأَنَا مِنْهَا فِي مَحَبَّةٍ، قَدْ أَكَلْتُ حَرِيْبَتِي، وَأَرَاكَ مَاءَ شَيْتِي، قُلْتُ: هَلَا سَرَّحْتَ وَاسْتَرَحْتَ.
ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا يَبْدَى لَهُ وَجْهُ الْأَدَبِ فَيَعْفَفُنَا عَنْ ذِكْرِهِ وَالْحَوْضَ فِيهِ.

الْمَقَامَةُ الْحُلُوانِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الْحَجِّ فِيمَنْ قَفَلَ، وَنَزَلْتُ مَعَ مَنْ نَزَلَ، قُلْتُ لِلْغَلَامِي: أَجِدُ شَعْرِي طَوِيلًا، وَقَدْ انْسَخَ بَدَنِي
قَلِيلًا، فَاخْتَرْ لَنَا حَمَامًا نَدْخُلُهُ، وَحَمَامًا نَسْتَعْمِلُهُ، وَلِيَكُنَّ الْحَمَامُ وَاسِعَ الرُّقْعَةِ، نَظِيفَ الْبُقْعَةِ، طَيِّبَ الْهَوَاءِ،
مُعْتَدِلَ الْمَاءِ، وَلِيَكُنَّ الْحَمَامُ خَفِيفَ الْيَدِ، حَدِيدَ الْمَوْسَى، نَظِيفَ الثِّيَابِ، قَلِيلَ الْفُضُولِ، فَخَرَجَ مَلِيًّا وَعَادَ
بَطِيًّا، وَقَالَ: قَدْ اخْتَرْتُهُ كَمَا رَسَمْتُمْ، فَأَخَذْنَا إِلَى الْحَمَامِ السَّمْتِ، وَأَتَيْنَاهُ فَلَمْ نَرَ قَوْمَهُ، لَكِنِّي دَخَلْتُهُ وَدَخَلَ
عَلَيَّ أَثْرِي رَجُلٌ وَعَمَدٌ إِلَى قِطْعَةِ طِينٍ فَلَطَّخَ بِهَا جَبِينِي، وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِي، ثُمَّ خَرَجَ وَدَخَلَ آخَرَ فَجَعَلَ
يَذَلِكُنِي دَلَكًا يَكْدُ الْعِظَامَ، وَيَغْمِزُنِي غَمَزًا يَهْدُ الْأَوْصَالَ وَيُصْفِرُّ صَفِيرًا يُرْسُ الْبُزَاقَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَأْسِي
يَغْسِلُهُ، وَإِلَى الْمَاءِ يُرْسِلُهُ، وَمَا لَبْتُ أَنْ دَخَلَ الْأَوَّلُ فَحَيًّا أَخْدَعَ الثَّانِي بِمَضْمُومَةٍ فَعَقَعَتْ أَنْيَابَهُ، وَقَالَ: يَا
لُكْعُ مَا لَكَ وَلِهَذَا الرَّأْسُ وَهُوَ لِي؟ ثُمَّ عَطَفَ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ بِمَجْمُوعَةٍ هَتَكَتْ حِجَابَهُ، وَقَالَ: بَلْ هَذَا
الرَّأْسُ حَقِّي وَمِلْكِي وَفِي يَدِي، ثُمَّ تَلَكَمَا حَتَّى عَيَّيَا، وَتَحَاكَمَا لِمَا بَقِيَ، فَأَتَيْتُ صَاحِبَ الْحَمَامِ، فَقَالَ الْأَوَّلُ:
أَنَا صَاحِبُ هَذَا الرَّأْسِ؛ لِأَنِّي لَطَّخْتُ جَبِينَهُ، وَوَضَعْتُ عَلَيْهِ طِينَهُ، وَقَالَ الثَّانِي: بَلْ أَنَا مَالِكُهُ؛ لِأَنِّي دَخَلْتُ
حَامِلَهُ، وَغَمَزْتُ مَفَاصِلَهُ، فَقَالَ الْحَمَامِيُّ: انْتُونِي بِصَاحِبِ الرَّأْسِ أَسْأَلُهُ، أَلَيْكَ هَذَا الرَّأْسُ أَمْ لَهُ، فَأَتَيْتَانِي
وَقَالَا: لَنَا عِنْدَكَ شَهَادَةٌ فَجَعَشْتُمْ، فَقُمْتُ وَأَتَيْتُ، شَيْتُ أَمْ آيَيْتُ، فَقَالَ الْحَمَامِيُّ: يَا رَجُلُ لَا تَقُلْ غَيْرَ الصِّدْقِ،
وَلَا تَشْهَدْ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَقُلْ لِي: هَذَا الرَّأْسُ لِأَيِّهِمَا، فَقُلْتُ: يَا عَافَاكَ اللَّهُ هَذَا رَأْسِي، قَدْ صَحَبَنِي فِي الطَّرِيقِ،
وَطَافَ مَعِي بِالْيَيْتِ الْعَتِيقِ، وَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهُ لِي، فَقَالَ لِي: اسْكُتْ يَا فَضُولِي، ثُمَّ مَالَ إِلَى أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ

فَقَالَ: يَا هَذَا إِلَى كَمْ هَذِهِ الْمُنَافَسَةُ مَعَ النَّاسِ، بِهَذَا الرَّأْسِ؟ تَسَلُّ عَنْ قَلِيلِ خَطَرِهِ، إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَحَرِّ سَقَرِهِ، وَهَبْ أَنْ هَذَا الرَّأْسَ لَيْسَ، وَأَنَا لَمْ تَرْ هَذَا التَّيْسَ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَقُمْتَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ خَجَلًا، وَلَبِسْتَ الثِّيَابَ وَجَلًا، وَأَسَلَّتْ مِنْ الْحَمَامِ عَجَلًا، وَسَبَّتِ الْغُلَامَ بِالْعَضِّ وَالْمَصِّ، وَدَقَّقْتُهُ دَقَّ الْجِصِّ، وَقُلْتَ لِآخَرَ: اذْهَبْ فَأَتِنِي بِحَجَّامٍ يَحُطُّ عَنِّي هَذَا الثَّقَلُ، فَجَاءَنِي بِرَجُلٍ لَطِيفِ الْبِنْيَةِ، مَلِيحِ الْحَلِيَّةِ، فِي صُورَةِ الدُّمِّيَّةِ، فَارْتَحَتُ إِلَيْهِ، وَدَخَلَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، وَمِنْ أَيِّ بَلَدٍ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: مِنْ قُمْ، فَقَالَ: حَيَّاكَ اللَّهُ! مِنْ أَرْضِ النُّعْمَةِ وَالرَّفَاهَةِ وَبَلَدِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَقَدْ حَضَرْتُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ جَامِعَهَا وَقَدْ أَشْعَلَتْ فِيهِ الْمَصَابِيحُ، وَأُقِيمَتِ التَّرَاوِيحُ، فَمَا شَعَرْنَا إِلَّا بِمَدِّ النَّيْلِ، وَقَدْ أَتَى عَلَيَّ تِلْكَ الْقَنَادِيلُ، لَكِنْ صَنَعَ اللَّهُ لِي بِخُفِّ قَدِّ كُنْتُ لَبِسْتُهُ رَطْبًا فَلَمْ يَحْصُلْ طِرَازُهُ عَلَيَّ كُمَّهُ، وَعَادَ الصَّبِيُّ إِلَى أُمِّهِ، بَعْدَ أَنْ صَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ وَاعْتَدَلْتُ الظَّلَّ، وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَ حَجُّكَ؟ هَلْ قَضَيْتَ مَنَاسِكَهُ كَمَا وَجِبَ، وَصَاحُوا الْعَجَبَ الْعَجَبَ؟ فَظَرْتُ إِلَى الْمَنَارَةِ، وَمَا أَهْوَنَ الْحَرْبِ عَلَى النَّظَّارَةِ، وَوَجَدْتُ الْهَرِيسَةَ عَلَى حَالِهَا، وَعَلِمْتُ أَنَّ الْأَمْرَ بِقَضَاءِ مِنَ اللَّهِ وَقَدْرٍ، وَإِلَى مَتَى هَذَا الصُّجْرُ؟ وَالْيَوْمُ وَعَدُوٌّ، وَالسَّبْتُ وَالْأَحَدُ، وَلَا أَطِيلُ وَمَا هَذَا الْقَالَ وَالْقِيلُ؟ وَلَكِنْ أَحْيَيْتُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمُبْرَدَ فِي النَّحْوِ حَدِيدُ الْمَوْسَى فَلَا تَشْتَغَلْ بِقَوْلِ الْعَامَّةِ؛ فَلَوْ كَانَتْ الْاسْتِطَاعَةُ قَبْلَ الْفِعْلِ لَكُنْتُ قَدْ حَلَقْتُ رَأْسَكَ، فَهَلْ تَرَى أَنْ نَبْتَدِي؟

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقَيْتُ مُتَحِيرًا مِنْ بَيَانِهِ، فِي هَذَا بَيَانِهِ، وَخَشَيْتُ أَنْ يَطُولَ مَجْلِسُهُ، فَقُلْتُ: إِلَى غَدٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ مَنْ حَضَرَ، فَقَالُوا: هَذَا رَجُلٌ مِنْ بِلَادِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ لَمْ يُوَأْفَقْهُ هَذَا الْمَاءُ، فَعَلَيْتُ عَلَيْهِ السُّودَاءُ، وَهُوَ طَوَّلَ النَّهَارَ يَهْدِي كَمَا تَرَى، وَوَرَاءَهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ، فَقُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ، وَعَزَّ عَلَيَّ جُنُونُهُ، وَأَنْشَأْتُ أَقُولُ:

أَنَا أُعْطِيَ اللَّهَ عَهْدًا ... مُحْكَمًا فِي التَّدْرِ عَقْدًا
لَا حَلَقْتُ الرَّأْسَ مَا عَشْرَ ... تَوْلُو لَا قَيْتُ جَهْدًا
الْمَقَامَةَ التَّهْيِيدِيَّةَ

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

مَلْتُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي إِلَى فِنَاءِ حَيْمَةِ أَلْتَمِسُ الْقَرَى مِنْ أَهْلِهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا رَجُلٌ حُرْفَقَةٌ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقُلْنَا: أَضْيَافٌ لَمْ يَدُوقُوا مِنْذُ ثَلَاثِ عَدُوفٍ، قَالَ: فَتَسَحَّحْ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا رَأَيْكُمْ يَا فِتْيَانُ فِي نَهْيَةِ فِرْقِ كَهَامَةِ الْأَصْلَعِ، فِي جَفْنَةِ رَوْحَاءِ، مُكَلَّلَةٍ بِعَجْوَةِ خَيْبَرٍ مِنْ أَكْثَارِ جَبَّارِ رُبُوضِ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا تَمَلُّ الْقَمَمِ، مِنْ جَمَاعَةِ خُمْصِ عَطَشِ حِمْسِ، يَغِيبُ فِيهَا الضَّرْسُ، كَأَنَّ نَوَاهَا أَلْسُنُ الطَّيْرِ يَحْفَنُونَ فِيهَا النَّهْيَةَ مَعَ أَفْعَبٍ قَدْ احْتَلَبْنَ مِنَ الْجِلَادِ الْهَزْمِيَّةِ الرَّبْلِيَّةِ أَتَشْتَهُونَهَا يَا فِتْيَانُ؟ فَقُلْنَا: إِي وَاللَّهِ نُسْتَهِيهَا، فَفَهَّقَهُ الشَّيْخُ وَقَالَ: وَعَمُّكُمْ أَيْضًا يَسْتَهِيهَا، ثُمَّ قَالَ: فَمَا رَأَيْكُمْ يَا فِتْيَانُ فِي دَرْمَكِ كَأَنَّهَا قَطَعَ السَّبَاتِكِ تُجْرَثُ عَلَى سُفْرَةِ حَرْتِيَّةٍ بِهَا رِيحُ الْقَرَطِ فَيَبُؤُ إِلَيْهَا مِنْكُمْ فَيُ رَفِيفٌ، لَبِقٌ خَفِيفٌ، فَيَعِجُّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرِجُّهُ أَوْ يَخْشِفُهُ، فَيَزِيلُهُ دُونَ مَلِكِ نَاعِمٍ، ثُمَّ يَلْتَهُ بِالسَّمَارِ أَوْ الْمَدَّقِ لَتًا غَزِيرًا، ثُمَّ يَعْمَدُ إِلَيْهِ فَيَلْبُوهُ وَيَدْعُهُ فِي نَاحِيَةِ الصَّيْدَاءِ، حَتَّى إِذَا نَحَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَزَّرَ عَمَدًا إِلَى قَصْدِ الْعَضَا فَأَشْعَلَ فِيهِ النَّارَ فَلَمَّا خَبِتْ نَارُهُ، مَهَّدَ لِقَرْمُوصِهِ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى عَجِينِهِ

فَفَرَطَحَهُ بَعْدَ مَا أَنْعَمَ تَلَوِيَّتَهُ، ثُمَّ دَحَا بِهِ عَلَيْهَا، ثُمَّ حَمَرَهُ فَلَمَّضَا قَفَّ وَقَبَّ أَحَالَ عَلَيْهِ مِنَ الرِّضْفِ مَا يَلْتَقِي بِهِ الْأَوَارَانَ، حَتَّى إِذَا غَطَاهُمَا عَلَى الْمَلَّةِ الْمُشَاكِهَةِ بَطَّقَ وَتَفَلَّجَ شِقَاقًا، وَحَكَى قِشْرَهَا رُقَاقًا، وَأَحْمَرَارُهَا أَحْمِرَارٌ بُسْرٍ الْحِجَازِ الْمَشْهُورِ بِأَمِّ الْجِرْدَانِ أَوْ عَدِيقِ بِنِّ طَابٍ شَنَّ عَلَيْهَا ضَرْبٌ بِيضَاءُ كَالثَّلَجِ إِلَى أَوَانَ رُسُوحِهَا فِي خِلَالِ الدَّهَانِ، وَيَشْرَبُ لُبُّ الدَّرْمَكِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الضَّرْبِ، قُدِّمَتْ إِلَيْكُمْ فَلَقِمُونَهَا لَقْمَ جَوْينٍ أَوْ زَنْكَلٍ أَفْتَشْتَهُونَهَا يَا فِتْيَانُ؟ قَالَ: فَاشْرَابَ كُلُّ مِنَّا إِلَى وَصْفِهِ، وَتَحَلَّبَ رِيْقُهُ وَتَلَمَّظَ، وَتَمَطَّقَ، قُلْنَا: إِي وَاللَّهِ نَشْتَهِيهَا، قَالَ: فَفَهَّقَهُ الشَّيْخُ وَقَالَ: وَعَمُّكُمْ وَاللَّهِ لَا يُبْغِضُهَا ثُمَّ قَالَ: مَا رَأَيْكُمْ يَا فِتْيَانُ فِي عَنَاقِ نَجْدِيَّةِ، عُلُوِيَّةِ بَرِيَّةِ، قَدْ أَكَلَتِ الْبِرْمَ وَالشَّيْحَ النَّجْدِيَّ وَالْقَيْصُومَ وَالْمَهْشِيمَ، وَتَبَرَّضَتِ الْحَمِيمَ، وَتَمَلَّتْ مِنَ الْقَصِيصِ فَوْرَى مُخْطَهَا، وَزَهَمَتْ كُشَيْبَتَهَا تُشْحَطُ مُعْتَبَطَةً ثُمَّ تُنْكَسُ فِي وَطِيسٍ حَتَّى تَنْضَجَ مِنْ غَيْرِ امْتِحَاشٍ أَوْ إِنْهَاءٍ، ثُمَّ تُقَدَّمُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ عَطَّ إِهَابُهَا عَنْ شَحْمَةِ بِيضَاءٍ عَلَى خِوَانٍ مُنْصَدِّ بِصَلَاتِقٍ كَأَنَّهَا الْقَبَاطِيُّ الْمُنْشَرُّ، أَوْ الْقَوْهِيُّ الْمَمْصَرُّ، وَقَدْ احْتَفَنَتْهَا نَقْرَاتٌ فِيهَا صِنَابٌ وَأَصْبَاغٌ شَتَّى، فَنُوضَعُ بَيْنَكُمْ تَهَادُرُ عَرَقًا، وَتَسَايِلُ مَرَقًا، أَفْتَشْتَهُونَهَا يَا فِتْيَانُ؟ قُلْنَا: إِي وَاللَّهِ نَشْتَهِيهَا، قَالَ: وَعَمُّكُمْ وَاللَّهِ يَرْقُصُ لَهَا، فَوْتَبَ بَعْضُنَا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ، وَقَالَ: مَا يَكْفِي مَا بَنَا مِنَ الدَّفْعِ حَتَّى تَسْخَرَ بِنَا؟ فَآتَانَا ابْنَتُهُ بِطَبِّقٍ عَلَيْهِ جِلْفَةٌ وَحُنَالَةٌ وَلَوِيَّةٌ وَأَكْرَمَتْ مَثْوَانًا، فَانْصَرَفْنَا لَهَا حَامِدِينَ، وَلَهُ دَامِينَ.

المقامة الإبلية

حدثنا عيسى بن هشام قال:

أَضَلَّتْ إِبِلًا لِي، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهَا، فَحَلَلْتُ بُوَادٍ خَضِرٍ، فَإِذَا أَنَهَارٌ مُصَرَّدَةٌ، وَأَشْجَارٌ بَاسِقَةٌ، وَأَنْمَارٌ يَانِعَةٌ، وَأَزْهَارٌ مُتَوَرَّةٌ، وَأَنْمَاطٌ مَبْسُوطَةٌ، وَإِذَا شَيْخٌ جَالِسٌ، فَرَاعَنِي مِنْهُ مَا يَرُوعُ الْوَحِيدَ مِنْ مِثْلِهِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَاثْتَلْتُ، وَسَأَلَنِي عَنْ حَالِي فَأَخْبَرْتُ، فَقَالَ لِي: أَصَبْتَ دَالَتَكَ وَوَجَدْتَ ضَائِكَ، فَهَلْ تَرَوِي مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ شَيْئًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَأَنْشَدْتُ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ، وَعَبِيدِ وَكَبِيدِ وَطَرْفَةَ فَلَمْ يَطْرُبْ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَنْشِدْكَ مِشْنَ شِعْرِي؟ قُلْتُ لَهُ: إِيه، فَأَنْشَدَ:

بَانَ الْحَلِيطُ وَلَوْ طَوَّعْتَ مَا بَانَ وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانَا

حَتَّى أَتَى عَلَى الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا، فَقُلْتُ: يَا شَيْخُ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ لِحَجْرٍ قَدْ حَمَطَتْهَا الصَّبِيَانُ، وَعَرَفَهَا النَّسْوَانُ، وَوَلَجَتْ الْأَخْيِيَّةَ. وَوَرَدَتْ الْأَنْدِيَّةَ، فَقَالَ: دَعْنِي مِنْ هَذَا، وَإِنْ كُنْتَ تَرَوِي لِأَبِي نُوَّاسٍ شِعْرًا فَأَنْشِدْنِيهِ، فَأَنْشَدْتُهُ:

لَا أَنْدُبُ الدَّهْرَ رَبْعًا غَيْرَ مَا نُوَسْوَلَسْتُ أَصْبُو إِلَى الْحَادِينَ بِالْعَيْسِ

أَحَقُّ مَنْزَلَةً بِالْهَجْرِ مَنْزَلَةٌ ... وَصَلُ الْحَبِيبِ عَلَيْهَا غَيْرُ مَلْبُوسِ

يَا لَيْلَةً غَبَرْتُ مَا كَانَ أَطْيَبَهَا وَالْكَوْسُ تَعْمَلُ فِي إِخْوَانِنَا الشُّوسِ

وَشَادِنِ نَطَقَتْ بِالسَّحْرِ مُقْلَتُهُ ... مُزَنَّرٌ حَلْفَ تَسْبِيحِ وَتَقْدِيسِ

نَارِ عُنْتِ الرَّبِّيقِ وَالصَّهْبَاءِ صَافِيَةٍ فِي زِيِّ قَاضٍ وَنُسْكَ الشَّيْخِ إِبْلِيسِ

لَمَّا ثَمَلْنَا وَكُلَّ النَّاسِ قَدْ ثَمَلُوا ... وَخَفَّتْ صَرَغَتُهُ إِبَائِي بِالْكَوْسِ

عَطَطْتُ مُسْتَنْعِسًا نَوْمًا لِأُنْعِسَ فَاسْتَشَعَرْتُ مُقْلَتَاهُ النَّوْمَ مِنْ كَيْسِي
وَأَمْتَدَّ فَوْقَ سَرِيرِ كَانَ أَرْفَقَ بِي ... عَلَى تَشَعُّعِهِ مِنْ عَرْشِ بَلْقَيْسِ
وَزُرْتُ مَضْجَعَهُ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَدَذَلْتُ عَلَى الصَّبْحِ أَصْوَاتَ التَّوَائِسِ
فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ فَقُلْتُ: الْقَسُ زَارَ، وَلَا يَدُّ لِدَيْرِكَ مِنْ تَشْمِيسِ قَيْسِي
فَقَالَ: بَسَ لَعْمَرِي أَنْتَ مِنْ رَجُلٍ قُلْتُ: كَلَّا فَإِنِّي لَسْتُ بِإِبْلِيسِ
قَالَ: فَطَرَبَ الشَّيْخُ وَشَهَقَ وَزَعَقَ، فَقُلْتُ: قَبَّحَكَ اللَّهُ مِنْ شَيْخٍ لَا أَدْرِي أَبَانِيحَالِكَ، شِعْرَ جَرِيرٍ أَنْتَ أَسْخَفُ
أَمْ بِطَرَبِكَ مِنْ شِعْرِ أَبِي نُوَّاسٍ وَهُوَ فُوَيْسِقٌ عَيَّارٌ؟. فَقَالَ: دَعْنِي مِنْ هَذَا وَامْضِ عَلَى وَجْهِكَ، فَإِذَا لَقِيتَ فِي
طَرِيقِكَ رَجُلًا مَعَهُ نَحْيٌ صَغِيرٌ يَدُورُ فِي الدُّورِ، حَوْلَ الْقُدُورِ، يُرْهِى بِحِلْيَتِهِ، وَيُبَاهِي بِلِحْيَتِهِ، فَقُلْ لَهُ: دُلَّنِي
عَلَى حَوْتِ مَضْرُورٍ، فِي بَعْضِ الْبُحُورِ، مُخَطَفِ الْخُصُورِ، يَلْدَغُ كَالزُّبُورِ، وَيَعْتَمُّ بِالثُّورِ، أَبُوهُ حَجْرٌ، وَأُمُّهُ
ذَكْرٌ، وَرَأْسُهُ ذَهَبٌ، وَاسْمُهُ لَهَبٌ، وَبَاقِيَهُ ذَنْبٌ، لَهُ فِي الْمُبُوسِ، عَمَلُ السُّوسِ، وَهُوَ فِي الْيَتِّ، آفَةُ الزَّيْتِ،
شَرِيبٌ لَا يَنْفَعُ، أَكُولٌ لَا يَشْبَعُ، بَدُولٌ لَا يَمْنَعُ، يُنْمَى إِلَى الصُّعُودِ، وَلَا يَقْصُرُ مَالُهُ مِنْ جُودٍ، يَسُوءُكَ مَا
يَسْرُهُ، وَيَنْفَعُكَ مَا يَضُرُّهُ، وَكُنْتُ أَكْتُمُكَ حَدِيثِي، وَأَعِيشُ مَعَكَ فِي رَحَاءِ، لَكِنَّكَ آيَّتَ فَخُذْ الْآنَ، فَمَا أَحَدٌ
مِنَ الشُّعْرَاءِ إِلَّا وَمَعَهُ مُعِينٌ مِنَّا، وَأَنَا أَمَلَيْتُ عَلَى جَرِيرٍ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ، وَأَنَا الشَّيْخُ أَبُو مُرَّةَ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: ثُمَّ غَابَ وَلَمْ أَرَهُ وَمَضَيْتُ لَوَجْهِ، فَلَقِيتُ رَجُلًا فِي يَدِهِ مَدْبَةٌ، فَقُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ
صَاحِبِي، وَقُلْتُ لَهُ مَا سَمِعْتُ مِنْهُ فَنَاولَنِي مِسْرَجَةً، وَأَوْمَأَ إِلَيَّ إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ مُظْلِمٍ فَقَالَ: ذُونُكَ الْغَارَ،
وَمَعَكَ النَّارَ، قَالَ: فَدَخَلْتُهُ فَإِذَا أَنَا بِإِبِلِي قَدْ أَخَذَتْ سَمْتَهَا، فَلَوَيْتُ وَجُوهَهَا وَرَدَدْتُهَا، وَبَيْنَا أَنَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ
فِي الْغِيَاضِ أَدْبُ الْحَمَرِ، إِذْ بِأَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَنْدَرِيِّ تَلَقَّانِي بِالسَّلَامِ، فَقُلْتُ: مَا حَدَاكَ وَيَحَاكَ إِلَيَّ هَذَا
الْمَقَامِ؟ قَالَ: جُورُ الْأَيَّامِ فِي الْأَحْكَامِ، وَعَدَمُ الْكِرَامِ مِنَ الْأَنْامِ، قُلْتُ: فَاحْكُمْ حُكْمَكَ يَا أَبَا الْفَتْحِ، فَقَالَ:
احْمِلْنِي عَلَى قَعُودٍ، وَأَرِقْ لِي مَاءً فِي عُودٍ، فَقُلْتُ: لَكَ ذَلِكَ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

نَفْسِي فِدَاءً مُحَكَّمٍ ... كَلَفْتُهُ شَطَطًا فَاسْجَحْ

مَا حَاكَ لِحْيَتَهُ، وَلَا ... مَسَحَ الْمُخَاطَ، وَلَا تَنْحَحْ

ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِ الشَّيْخِ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ عِمَامَتِهِ، وَقَالَ: هَذِهِ ثَمَرَةٌ بِرِّهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْفَتْحِ شَحَذْتَ عَلَى إِبْلِيسِ؟
إِنَّكَ لَشَحَّاذٌ!!

الْمَقَامَةُ الْأَرْمَنِیَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: لَمَّا قَفَلْنَا مِنْ تِجَارَةِ إِرْمِينِيَّةَ أَهَدَتْنَا الْفَلَاةَ إِلَى أَطْفَالِهَا، وَعَشَرْنَا بِهِمْ فِي أَذْيَالِهَا،
وَأَنَاخُونَا بِأَرْضِ نَعَامَةٍ، حَتَّى اسْتَنْظَفُوا حَقَائِبَنَا، وَأَرَاخُوا رَكَائِبَنَا، وَبَقِينَا بِيَاضَ الْيَوْمِ، وَقَدَّ نَظْمَنَا الْقَدُّ أَحْرَابًا،
وَرَبَطْتُ خَيْوَلَنَا اغْتِصَابًا.

حَتَّى أَرْدَفَ اللَّيْلُ أَذْنَابَهُ، وَمَدَّ النَّجْمُ أَطْنَابَهُ، ثُمَّ انْتَحَوْا عَجْرَ الْفَلَاةِ، وَأَخَذْنَا صَدْرَهَا، وَهَلُمَّ جَرًّا، حَتَّى طَلَعَ
حُسْنُ الْفَجْرِ مِنْ نِقَابِ الْحِشْمَةِ، وَانْتَضَى سَيْفُ الصَّبْحِ مِنْ قِرَابِ الظُّلْمَةِ، فَمَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ، إِلَّا عَلَى
الْأَشْعَارِ وَالْأَبْشَارِ، وَمَا زِلْنَا بِالْأَهْوَالِ نَلْرَأُ حُجْبِهَا، وَبِالْفُلُواتِ نَقْطَعُ نَجْبِهَا، حَتَّى حَلَلْنَا الْمَرَاغَةَ، وَكُلُّ مِنَّا

انْتَظَمَ إِلَى رَفِيقٍ، وَأَخَذَ فِي طَرِيقٍ، وَأَنْضَمَّ إِلَى شَابٍّ يَغْلُوهُ صَفَارٌ، وَتَغْلُوهُ أَطْمَارٌ، يُكْنَى أَبُو الْفَتْحِ
 الإسْكَندَرِيَّ، وَسِرْنَا فِي طَلَبِ أَبِي جَابِرٍ فَوَجَدْنَاهُ يَطْلُعُ مِنْ ذَاتِ لَطِيٍّ، تُسَجَّرُ بِالْعَصَا، فَعَمَدَ الإسْكَندَرِيَّ إِلَى
 رَجُلٍ فَاسْتَمَاحَهُ كَفَّ مِلْحٍ، وَقَالَ لِلْحَبَّازِ: أَعْرَبِي رَأْسَ الثُّورِ، فَإِنِّي مَقْرُورٌ، وَلَمَّا فَرَعَ سَنَامَهُ جَعَلَ يُحَدِّثُ
 الْقَوْمَ بِحَالِهِ، وَيُخْبِرُهُمْ بِاخْتِلَالِهِ، وَيَنْشُرُ الْمِلْحَ فَشِيَ الثُّورُ مِنْ تَحْتِ أَذْيَالِهِ، يُوهِمُهُمْ أَنَّ أَدَى بَنِيَابِهِ، فَقَالَ
 الْحَبَّازُ: مَا لَكَ لَا أَبَا لَكَ؟! اجْمَعِ أَذْيَالَكَ فَقَدْ أَفْسَدْتَ الْحُبْرَ عَلَيْنَا، وَقَامَ إِلَى الرُّغْفَانِ فَرَمَاهَا، وَجَعَلَ
 الإسْكَندَرِيَّ يَلْتَقِطُهَا، وَيَبْأَطُهَا، فَأَعَجَبَنِي حَيْلُهُ فِيمَا فَعَلَ، وَقَالَ: اصْبِرْ عَلَيَّ حَتَّى أَحْتَالَ عَلَى الْأَدَمِ، فَلَا
 حِيلَةَ مَعَ الْعَدَمِ، وَصَارَ إِلَى رَجُلٍ قَدْ صَفَّفَ أَوَانِي نَظِيفَةً فِيهَا أَلْوَانُ الْأَلْبَانِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الْأَثْمَانِ، وَاسْتَأْذَنَ فِي
 الدُّوقِ، فَقَالَ: أَفْعَلْ، فَأَدَارَ فِي الْإِنِيَةِ إِصْبِعَهُ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ شَيْئًا ضَيْعَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُهُ، وَهَلْ

لَكَ رَغْبَةٌ فِي الْحِجَامَةِ؟ فَقَالَ: قَبْحَكَ اللَّهُ! أَتَيْتَ حَجَّامٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَعَمَدَ لِأَعْرَاضِهِ يَسْبِيهَا، وَإِلَى الْإِنِيَةِ يَصْبِيهَا،
 فَقَالَ الإسْكَندَرِيُّ: أَتَرْنِي عَلَى الشَّيْطَانِ، فَقَالَ: خُذْهَا لَا بُورِكَ لَكَ فِيهَا، فَأَخَذَهَا وَأَوَيْنَا إِلَى خَلْوَةٍ، وَأَكَلْنَاهَا
 بِدَفْعَةٍ، وَسِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَرْيَةً اسْتَطَعْنَا أَهْلِهَا، فَبَادَرَ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ قَتِيٌّ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَجَاءَنَا بِصَفْحَةٍ قَدْ سَدَّ
 اللَّيْنُ أَنْفَاسَهَا، حَتَّى بَلَغَ رَأْسَهَا، فَجَعَلْنَا نَتَحَسَّأُهَا، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَاهَا، وَسَأَلْنَاهُمُ الْحُبْرَ، فَأَبَوْا إِلَّا بِالثَّمَنِ، فَقَالَ
 الإسْكَندَرِيُّ: مَا لَكُمْ تَجُودُونَ بِاللَّبَنِ، وَتَمْنَعُونَ الْحُبْرَ إِلَّا بِالثَّمَنِ؟ فَقَالَ الْغُلَامُ: كَانَ هَذَا اللَّبْنُ فِي غَضَارَةٍ،
 قَدْ وَقَعَتْ فِيهِ فَارَةٌ، فَحَنُّ نَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى السَّيَّارَةِ، فَقَالَ الإسْكَندَرِيُّ: إِنَّا لِلَّهِ! وَأَخَذَ الصَّحْفَةَ فَكَسَرَهَا،
 فَصَاحَ الْغُلَامُ: وَاحْرَبَاهُ، وَامْحُرُوهُ، فَاقْشَعَرْتُ مِنَّا الْجِلْدَةَ، وَانْقَلَبَتْ عَلَيْنَا الْمَعِدَةُ، وَنَفَضْنَا مَا كُنَّا أَكَلْنَا،
 وَقُلْتُ: هَذَا جَزَاءُ مَا بِالْأَمْسِ فَعَلْنَا، وَأَنْشَأَ أَبُو الْفَتْحِ الإسْكَندَرِيُّ يَقُولُ:

يَا نَفْسُ لَا تَتَعَنَّى ... فَالْشَّهْمُ لَا يَتَعَنَّى

مَنْ يَصْحَبِ الدَّهْرَ يَأْكُلُ ... فِيهِ سَمِينًا وَغَنًّا

فَالْبَسْ لِدَهْرٍ جَدِيدًا ... وَالْبَسْ لِآخِرِ رَتًّا

الْمَقَامَةَ التَّاجِمِيَّةَ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: بَتُّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي كِتَابِيَّةٍ فَضَلُّ مِنْ رُفْقَانِي، فَتَدَاكَرْنَا الْفَصَاحَةَ، وَمَا وَدَعْنَا
 الْحَدِيثَ حَتَّى فَرَعْنَا عَلَيْنَا الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ الْمُتَنَابُ؟ فَقَالَ: وَفَدُ اللَّيْلِ وَبَرِيدُهُ، وَقُلُّ الْجُوعِ وَطَرِيدُهُ، وَغَرِيبُ
 نَضْوِهِ طَلِيحٌ وَعَيْشُهُ تَبْرِيحٌ، وَمِنْ دُونَ فَرَحِيهِ مَهَامُهُ فَيَحُ، وَضَيْفٌ ظَلُّهُ خَفِيفٌ، وَضَالَّتُهُ رَغِيفٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ
 مُضِيفٌ؟ فَتَبَادَرْنَا إِلَى فَتْحِ الْبَابِ وَأَنْخَنَا رَاحِلَتُهُ، وَجَمَعْنَا رُحْلَتَهُ، وَقُلْنَا: ذَارِكُ أَتَيْتَ، وَأَهْلَكَ وَأَقَيْتَ، وَهَلُمَّ
 الْبَيْتَ، وَضَحِكْنَا إِلَيْهِ، وَرَحَبْنَا بِهِ، وَأَرَيْنَاهُ ضَالَّتَهُ، وَسَاعَدْنَا حَتَّى شَبِعَ، وَحَادَثْنَا حَتَّى أَنْسَ، وَقُلْنَا: مَنْ
 الطَّالِعُ بِمَشْرِقِهِ، الْفَاتِنُ بِمَنْطِقِهِ؟؟ فَقَالَ: لَا يَعْرِفُ الْعُودَ كَالْعَاجِمِ، وَأَنَا الْمَعْرُوفُ بِالتَّاجِمِ، عَاشَرْتُ الدَّهْرَ
 لِأَخْبِرَهُ، فَعَصَرْتُ أَعْصَرَهُ، وَحَلَبْتُ أَشْطَرَهُ، وَجَرَّبْتُ النَّاسَ لِأَعْرِفَهُمْ، فَعَرَفْتُ مِنْهُمْ غَنَّهُمْ وَسَمِينَهُمْ، وَالثَّرْبَةَ
 لِأَذُوقَهَا، فَمَا لَمْ حَتْنِي أَرْضٌ إِلَّا فَقَاتُ عَيْنِهَا، وَلَا انْتَضَمْتُ رُفْقَةً إِلَّا وَلَجْتُ بَيْنَهَا، فَأَنَا فِي الشَّرْقِ أُذْكَرُ، وَفِي
 الْغَرْبِ لَا أُنْكَرُ، فَمَا مَلِكٌ إِلَّا وَطِئْتُ بِسَاطِئِهِ، وَلَا خَطْبٌ إِلَّا خَرَقْتُ سِمَاطِئَهُ، وَمَا سَكَتَ حَرْبٌ إِلَّا وَكُنْتُ
 فِيهَا سَفِيرًا، قَدْ جَرَّبَنِي الدَّهْرُ فِي زَمَنِي رَخَائِهِ وَبُوسِهِ، وَلَقَبَنِي بِوَجْهِ بَشَرِهِ وَعَبُوسِهِ. فَمَا بُحْتُ لِبُوسِهِ إِلَّا

بَلْبُوسِيهِ:

وَإِنْ كَانَ صَرَفُ الدَّهْرِ قَدَمَا أَضَرَ يِيُوَحَمَلْنِي مِنْ رِيِّهِ مَا يُحْمَلُ
فَقَدْ جَاءَ بِالِإِحْسَانِ حَيْثُ أَحْلَنِي مَحَلَّةَ صِدْقٍ لَيْسَ عَنْهَا مُحْوَلٌ

قُلْنَا: لَا فَضَّ فُوكَ، وَاللَّهِ أَنْتَ وَأَبُوكَ، مَا يَحْرُمُ السُّكُوتُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَلَا يَحِلُّ التُّطْقُ إِلَّا لَكَ، فَمِنْ أَيْنَ
طَلَعْتَ؟ وَأَيُّ تَغْرُبُ؟ وَمَا الَّذِي يَحْدُو أَمَلَكَ أَمَامَكَ، وَيَسُوقُ غَرَضَكَ قُدَامَكَ؟ قَالَ: أَمَّا الْوَطَنُ فَالْيَمَنُ،
وَأَمَّا الْوَطْرُ فَالْمَطْرُ، وَأَمَّا السَّائِقُ فَالضَّرُّ، وَالْعَيْشُ الْمُرُّ، قُلْنَا: فَلَوْ أَقَمْتَ بِهَذَا الْمَكَانِ لَقَاسَمْنَاكَ الْعُمَرَ فَمَا دُونَهُ،
وَلَصَادَفْتَ مِنَ الْأَمْطَارِ مَا يُزْرَعُ، وَمِنَ الْأَنْوَاءِ مَا يُكْرَعُ، قَالَ: مَا أَحْتَارُ عَلَيْكُمْ صَحْبًا، وَلَقَدْ وَجَدْتُ فَنَاءَكُمْ
رَحْبًا، وَلَكِنَّ أَمْطَارَكُمْ مَاءٌ وَالْمَاءُ لَا يُرْوِي الْعِطَاشَ، قُلْنَا فَآيُّ الْأَمْطَارِ يُرْوِيكَ؟ قَالَ: مَطَرٌ خَلْفِي، وَأَنْشَأَ
يَقُولُ:

سَجِسْتَانِ أَيْتَهَا الرَّاحِلَةَ ... وَبَحْرًا يَوْمُ الْمَنَى سَاحِلَةَ

سَتَقْصِدُ أَرْجَانِ إِنْ زُرْتَهَا ... بِوَاحِدَةٍ مَائَةٍ كَامِلَةَ

وَفَضْلُ الْأَمِيرِ عَلَى ابْنِ الْعَمِيدِ ... كَفَضْلِ قُرَيْشٍ عَلَى بَاهِلَةَ

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَخَرَجَ وَوَدَّعَانَهُ وَأَقَمْنَا بَعْدَهُ بُرْهَةً نَشْتَأْفُهُ، وَبِوَالْمُنَا فِرَاقَهُ، فَبَيْنَا نَحْنُ يَوْمَ غَيْمٍ فِي
سِمَطِ الثَّرِيَّا جُلُوسٌ إِذْ الْمَرَاكِبُ تُسَاقُ، وَالْجَنَائِبُ تُقَادُ، وَإِذَا رَجُلٌ قَدْ هَجَمَ عَلَيْنَا، قُلْنَا: مَنْ الْهَاجِمُ؟ فَإِذَا
شَيْخُنَا النَّاجِمُ، يُرْفَلُ فِي نَيْلِ الْمَنَى، وَذَيْلِ الْعِنَى، فَقُمْنَا إِلَيْهِ مُعَانِقِينَ، وَقُلْنَا: مَا وَرَأَيْكَ يَا عِصَامُ، فَقَالَ: جِمَالٌ
مُوقِرَةٌ، وَبَعَالٌ مُثْقَلَةٌ، وَحَقَائِبٌ مُقْفَلَةٌ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

مَوْلَايَ أَيُّ رَذِيلَةٍ لَمْ يَأْبَهَا ... خَلَفُ؟ وَأَيُّ فَضِيلَةٍ لَمْ يَأْتِهَا؟

مَا يُسْمَعُ الْعَافِينَ إِلَّا هَا كَهَا ... لَفْظًا، وَلَيْسَ يُجَابُ إِلَّا هَاتِهَا

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَسْفَرَتْ عَنْ أَوْجِهِ ... بِيضٌ، وَكَانَ الْخَلَالُ فِي وَجَنَاتِهَا

بِأَبِي شَمَانِلَةَ الَّتِي تَجْلُو الْعُلَا ... وَيَدًا تَرَى الْبَرَكَاتِ فِي حَرَكَاتِهَا

مَنْ عَدَّهَا حَسَنَاتٍ دَهْرٍ إِنِّي ... مِمَّنْ يَعُدُّ الدَّهْرُ مِنْ حَسَنَاتِهَا

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَسَأَلْنَا اللَّهَ بَقَاءَهُ، وَأَنْ يَرِزُقَنَا لِقَاءَهُ، وَأَقَامَ النَّاجِمُ أَيَّامًا مُقْتَصِرًا مِنْ لِسَانِهِ، عَلَى شُكْرِ
إِحْسَانِهِ، وَلَا يَتَصَرَّفُ مِنْ كَلَامِهِ، إِلَّا فِي مَدْحِ أَيَّامِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِإِنْعَامِهِ.

الْمَقَامَةُ الْخَلْفِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

لَمَّا وَوَلَّيْتُ أَحْكَامَ الْبَصْرَةِ، وَانْحَدَرْتُ إِلَيْهَا عَنْ الْحَضْرَةِ، صَحَبَنِي فِي الْمَرْكَبِ شَابٌّ كَانَتْهُ الْعَافِيَةُ فِي الْبَدَنِ،
فَقَالَ: إِنِّي فِي أَعْطَافِ الْأَرْضِ وَأَطْرَافِهَا صَانِعٌ، لَكِنِّي أُعَدُّ مُعَدًّا أَلْفٍ، وَأَقُومُ مَقَامَ صَفٍّ، وَهَلْ لَكَ أَنْ تَتَّخِذَنِي
صَنِيعَةً، وَلَا تَطْلُبَ مِنِّي ذَرِيعَةً، فَقُلْتُ: وَأَيُّ ذَرِيعَةٍ آكَدُ مِنْ فَضْلِكَ؟ وَأَيُّ وَسِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عَقْلِكَ؟ لَا بَلْ
أَخْلَمَكَ خِدْمَةُ الرَّفِيقِ، وَأَشَارَكَكَ فِي السَّعَةِ وَالضَّيْقِ، وَسِرْنَا فَلَمَّا وَصَلْنَا الْبَصْرَةَ غَابَ عَنِّي أَيَّامًا، فَضِيقْتُ
لِعَيْبَتِهِ ذَرْعًا، وَلَمْ أَمْلِكْ صَبْرًا، فَأَخَذْتُ أَقْنَسُ جُيُوبِ الْبَلَدِ حَتَّى وَجَدْتُهُ، فَقُلْتُ: مَا الَّذِي أَنْكَرْتَ؟ وَلَمْ

هَجَرَتْ؟ فَقَالَ: إِنَّ الْوَحْشَةَ تَفْدَحُ فِي الصَّدْرِ اقْتِدَاحَ النَّارِ فِي الرَّيْدِ، فَإِنْ أُطْفِئَتْ بَادَتْ وَتَلَاشَتْ، وَإِنْ عَاشَتْ، طَارَتْ وَطَاشَتْ، وَالْقَطْرُ إِذَا تَتَابَعَ عَلَى الْإِنَاءِ امْتَلَأَ وَفَاضَ، وَالْعَبُّ إِذَا تَرَكَ فَرَّخَ وَبَاصَ، وَالْحُرُّ لَا يَغْلُقُهُ شَرَكٌ كَالعَطَاءِ، وَلَا يَطْرُدُهُ سَوْطٌ كَالجَفَاءِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، تَنْظُرُ مِنْ عَالٍ، عَلَى الْكَرِيمِ نَظْرَ إِذْلَالٍ، وَعَلَى اللَّيْمِ نَظْرَ إِذْلَالٍ، فَمَنْ لَقِينَا بِأَنْفِ طَوِيلٍ، لَقِينَاهُ بِخُرْطُومِ فِيلٍ، وَمَنْ لَحِظْنَا بِنَظَرٍ شَزْرٍ، بَعْنَاهُ بِشَمَنِ نَزْرٍ، وَأَنْتَ لَمْ تَغْرُسْنِي لِيَقْتَلِعْنِي غُلَامَكَ، وَلَا اشْتَرَيْتَنِي لِتَبِيعَنِي خُدَّامَكَ، وَالرَّءُ مِنْ غُلَامَانِهِ، كَالْكِتَابِ مِنْ عُنْوَانِهِ، فَإِنْ كَانَ جَفَاؤُهُمْ شَيْئًا أَمَرْتَ بِهِ فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ؟ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَلِمْتَ بِهِ كَانَ أَحْجَبَ!! ثُمَّ قَالَ:

ظَفِرَتْ يَدَا خَلْفِ بْنِ أَحْمَدَ؛ إِنَّهُ ... سَهْلُ الْفِنَاءِ مُؤَدَّبُ الْخُدَّامِ

أَوْ مَا رَأَيْتَ الْجُودَ يَجْتَازُ الْوَرَى ... وَيَجِلُّ مِنْ يَدِهِ بَدَارُ مُقَامِ

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: ثُمَّ أَعْرَضَ وَتَبِعْتُهُ أَسْتَعِظِفُهُ، وَمَا زِلْتُ الْأَطْفَهَةَ حَتَّى انْصَرَفَ، بَعْدَ أَنْ حَلَفَ أَنْ لَا أُوْرِدَتْ مِنْ أَسَاءِ عَشْرَتِهِ، فَوَهَبْتُ لَهُ حُرْمَتَهُ.

المَقَامَةُ النَّيْسَابُورِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

كُنْتُ بِنَيْسَابُورَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَحَضَرْتُ الْمَفْرُوضَةَ، وَلَمَّا فَصِيَّتْهَا اجْتَاَزَ بِي رَجُلٌ قَدْ لَبَسَ دَنِيَّةً وَتَحَنَكَ سُنِيَّةً، فَقُلْتُ لِمُصَلِّ بَجَنِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا سُوسٌ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي صُوفِ الْأَيْتَامِ، وَجَرَادٌ لَا يَسْقُطُ إِلَّا عَلَى الزَّرْعِ الْحَرَامِ وَلِصٌّ لَا يُقْبَلُ إِلَّا خِزَانَةَ الْأَوْقَافِ، وَكُرْدِيٌّ لَا يُعْبَرُ إِلَّا عَلَى الضَّعَافِ، وَذَنْبٌ لَا يَفْتَرِسُ عِبَادَ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَمُحَارِبٌ لَا يَنْهَبُ مَالَ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الْعُهُودِ وَالشُّهُودِ وَقَدْ لَبَسَ دَنِيَّةً، وَخَلَعَ دِيْبِيَّةً، وَسَوَى طَيْلَسَانَهُ، وَحَرَّفَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ، وَقَصَرَ سِيَالَهُ، وَأَطَالَ حِيَالَهُ، وَأَبْدَى شَقَاشِقَهُ، وَغَطَّى مَخَارِقَهُ وَيَضُّ لِحِيَّتَهُ، وَسَوَدَ صَحِيْفَتَهُ، وَأَظْهَرَ وَرْعَهُ، وَسَتَرَ طَمَعَهُ فَقُلْتُ لَعَنَ اللَّهُ هَذَا فَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ أَعْرَفُ بِالْإِسْكَانَرِيِّ، فَقُلْتُ: سَقَى اللَّهُ أَرْضًا أَنْبَتَ هَذَا الْفَضْلَ، وَأَبَا خَلْفَ هَذَا النَّسْلِ، فَأَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكَعْبَةَ، فَقُلْتُ: بَحٌّ بَحٌّ بِأَكْلِهَا وَلَمَّا تُطْبِخُ، وَنَحْنُ إِذَا رَفَاقٌ فَقَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ وَأَنَا مُصَعَّدٌ وَأَنْتَ مُصَوَّبٌ؟! قُلْتُ: فَكَيْفَ تُصَعَّدُ إِلَى الْكَعْبَةِ؟ قَالَ: أَمَا إِنِّي أُرِيدُ كَعْبَةَ الْمُحْتَاجِ، لَا كَعْبَةَ الْحُجَّاجِ، وَمَشَعَرَ الْكَرِيمِ، لَا مَشَعَرَ الْحَرَمِ، وَبَيْتَ السَّبِيِّ، لَا بَيْتَ الْهَدْيِ، وَقِبْلَةَ الصَّلَاتِ، لَا قِبْلَةَ الصَّلَاةِ، وَمِنَى الصَّيْفِ، لَا مِنَى الْخَيْفِ، قُلْتُ: وَأَيْنَ هَذِهِ الْمَكَارِمُ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

بِحَيْثُ الدِّينِ وَالْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ ... وَخَدُّ الْمَكْرَمَاتِ بِهِ مُوَرَّدِ

بَارِضٌ تَنْبَتْ الْأَمَالُ فِيهَا ... لِأَنَّ سَحَابَهَا خَلْفَ بْنِ أَحْمَدِ.

المَقَامَةُ الْعِلْمِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: كُنْتُ فِي بَعْضِ مَطَارِحِ الْغُرَبَةِ مُجْتَازًا، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَقُولُ لِآخِرٍ: بِمِ أَدْرَكْتَ الْعِلْمَ؟ وَهُوَ يُجِيبُهُ، قَالَ: طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ بَعِيدَ الْمَرَامِ، لَا يُصْطَادُ بِالسَّهَامِ، وَلَا يُقَسَّمُ بِالْأَزْلَامِ، وَلَا يُرَى فِي الْمَنَامِ، وَلَا يُضْبَطُ بِاللِّجَامِ، وَلَا يُورَثُ عَنِ الْأَعْمَامِ، وَلَا يُسْتَعَارُ مِنَ الْكِرَامِ، فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ بِافْتِرَاشِ الْمَدْرِ، وَاسْتِنَادِ الْحَجَرِ، وَرَدِّ الصَّجَرِ، وَرُكُوبِ الْخَطَرِ، وَإِدْمَانِ السَّهْرِ، وَاصْطِحَابِ السَّفْرِ، وَكَثْرَةِ النَّظَرِ، وَإِعْمَالِ

الْفِكْرِ، فَوَجَدْتُهُ شَيْئًا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْغُرْسِ، وَلَا يُغْرَسُ إِلَّا بِالنَّفْسِ، وَصَيْدًا لَا يَقَعُ إِلَّا فِي النَّدْرِ، وَلَا يَنْشَبُ إِلَّا فِي الصَّدْرِ، وَطَائِرًا لَا يَخْدَعُهُ إِلَّا قَنْصُ اللَّفْظِ، وَلَا يَعْلُقُهُ إِلَّا شَرْكَ الْحِفْظِ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى الرُّوحِ، وَحَبَسْتُهُ عَلَى الْعَيْنِ، وَأَنْفَقْتُ مِنَ الْعَيْشِ، وَخَزَنْتُ فِي الْقَلْبِ، وَحَرَزْتُ بِالدَّرْسِ، وَاسْتَرَحْتُ مِنَ النَّظْرِ إِلَى التَّحْقِيقِ، وَمِنَ التَّحْقِيقِ إِلَى التَّعْلِيقِ، وَاسْتَعْنْتُ فِي ذَلِكَ بِالتَّوْفِيقِ، فَسَمِعْتُ مِنَ الْكَلَامِ مَا فَتَّقَ السَّمْعَ وَوَصَلَ إِلَى الْقَلْبِ وَتَغَلَّغَ فِي الصَّدْرِ، فَقُلْتُ: يَا فَتَى، وَمِنْ أَيْنَ مَطَّلَعُ هَذِهِ الشَّمْسِ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ:

إِسْكَندَرِيَّةُ دَارِي ... لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي

لَكِنَّ بِالشَّامِ لَيْلِي ... وَبِالعِرَاقِ نَهَارِي.

المَقَامَةُ الوَصِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

لَمَّا جَهَّزَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَندَرِيُّ وَلَدَهُ لِتِجَارَةِ أَقْعَدِهِ يَوْصِيَهُ، فَقَالَ بَعْدَ مَا حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ وَتَقْتُ بِمَتَانَةِ عَقْلِكَ، وَطَهَارَةِ أَصْلِكَ، فَإِنِّي شَفِيقٌ، وَالشَّفِيقُ سَيِّئُ الظَّنِّ، وَلَسْتُ آمَنُ عَلَيْكَ النَّفْسَ وَسُلْطَانَهَا، وَالشَّهْوَةَ وَشَيْطَانَهَا، فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِمَا نَهَارَكَ بِالصَّوْمِ وَلَيْلَكَ بِالتَّوَمِّ، إِنَّهُ لَبُوسُ ظَهَارَتِهِ الْجُوعُ، وَبَطَانَتُهُ الْهُجُوعُ، وَمَا لِبَسَهُمَا أَسَدٌ إِلَّا لَأَنْتَ نُورَتُهُ، أَفْهَمْتُهُمَا يَا بْنَ الْحَيِّثَةِ؟ وَكَمَا أَخَشَى عَلَيْكَ ذَلِكَ، فَلَا آمَنُ عَلَيْكَ لِصَيِّنٍ: أَحَدُهُمَا الْكِرْمُ، وَاسْمُ الْآخِرِ الْقَرْمُ، فَإِيَّاكَ وَإِيَاهُمَا؛ إِنَّ الْكِرْمَ أَسْرَعُ فِي الْمَالِ مِنَ السُّوسِ، وَإِنَّ الْقَرْمَ أَشْأَمُ مِنَ السُّوسِ. وَدَعْنِي مِنْ قَوْلِهِمْ "إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ" إِنَّهَا خُدْعَةٌ الصَّيِّ عَنِ اللَّبَنِ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ لَكَرِيمٌ، وَلَكِنَّ كِرْمَ اللَّهِ يَزِيدُنَا وَلَا يَنْقُصُهُ، وَيَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّهُ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ، فَلْتَكْرُمُ خِصَالُهُ، فَأَمَّا كِرْمٌ لَا يَزِيدُكَ حَتَّى يَنْقُصِي، وَلَا يَرِيشُكَ حَتَّى يَبْرِييَ، فَخِذْ لَانَ لَا أَقُولُ عَقْرِي، وَلَكِنْ بُقْرِي. أَفْهَمْتُهُمَا يَا ابْنَ الْمَشْهُومَةِ؟ إِنَّمَا التِّجَارَةُ، تُنْبِطُ الْمَاءَ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَيَبِينُ الْأَكْلَةَ وَالْأَكْلَةَ رِيحُ الْبَحْرِ، بَيِّنٌ أَنْ لَا خَطَرَ، وَالصَّيْنُ غَيْرُ أَنْ لَا سَفَرٌ، أَفْتَرُّكُهُ وَهُوَ مُعْرَضٌ ثُمَّ تَطْلُبُهُ وَهُوَ مُعْرُوزٌ؟ أَفْهَمْتُهُمَا لَا أَمْ لَكَ؟ إِنَّهُ الْمَالُ عَافَاكَ اللَّهُ فَلَا تُنْفِقَنَّ إِلَّا مِنَ الرَّبْحِ، وَعَلَيْكَ بِالْخَيْرِ وَالْمِلْحِ، وَلَكَ فِي الْخَلِّ وَالْبِصَلِ رُخْصَةٌ مَا لَمْ تُذِمَّهُمَا، وَلَمْ تَجْمَعْ بَيْنَهُمَا، وَاللَّحْمُ لِحْمِكَ وَمَا أَرَاكَ تَأْكُلُهُ، وَالْحُلُوبُ طَعَامٌ مَنْ لَا يُبَالِي عَلَى أَيِّ جَنْبِيهِ يَقَعُ، وَالوَجَبَاتُ عَيْشُ الصَّالِحِينَ، وَالْأَكْلُ عَلَى الْجُوعِ وَاقِيَةُ الْهَوْتِ، وَعَلَى الشَّبَعِ دَاعِيَةُ الْمَوْتِ، ثُمَّ كُنْ مَعَ النَّاسِ كَلَاعِبِ الشُّطْرُنِجِ: خُذْ كُلَّ مَا مَعَهُمْ، وَاحْفَظْ كُلَّ مَا مَعَكَ.

يَا بُنَيَّ قَدْ أَسْمَعْتُ وَأَبْلَغْتُ، فَإِنْ قَبِلْتَ فَاللَّهُ حَسْبُكَ، وَإِنْ آيَّتَ فَاللَّهُ حَسْبُكَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

المَقَامَةُ الصَّيْمَرِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي الْعَبَّاسِ الصَّيْمَرِيِّ: إِنَّ مِمَّا نَزَلَ بِي مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ اصْطَفَيْتُهُمْ وَاتَّخَبْتُهُمْ وَادَّخَرْتُهُمْ لِلشَّدَائِدِ مَا فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ وَأَدَبٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ وَاتَّعَطَّ وَتَأَدَّبَ.

وَذَلِكَ أَنِّي قَدِمْتُ مِنَ الصَّيْمَرَةِ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ، وَمَعِيَ جِرَابٌ دَنَائِرٍ وَمِنْ الْخُرْتِيِّ وَالْآلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَا أَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى أَحَدٍ، فَصَحِبْتُ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ وَالْكِتَابِ وَالشُّجَارِ، وَوَجُوهِ الشَّاءِ مِنْ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ،

وَالجِدَّةِ وَالْعَقَارِ، جَمَاعَةً اخْتَرْتُهُمْ لِلصُّحْبَةِ، وَادَّخَرْتُهُمْ لِلنُّكْبَةِ، فَلَمْ نَزَلْ فِي صُبُوحٍ وَعَجُوقٍ، نَتَعَذَّى بِالْجَدَايَا
الرُّضْعِ وَالطَّبَاهِجَاتِ الْفَارَسِيَّةِ، وَالْمُدَقَّقَاتِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ، وَالْقَلَايَا الْمُحْرِقَةِ وَالْكَبَابِ الرَّشِيدِي وَالْحَمْلَانَ،
وَشَرَابَنَا نَبِيذَ الْعَسَلِ، وَسَمَاعَنَا مِنَ الْمُحْسِنَاتِ الْحَذَاقِ، الْمَوْصُوفَاتِ فِي الْآفَاقِ، وَقَلْنَا اللَّوْزَ الْمُقَشَّرَ وَالسُّكَّرَ
وَالطَّبْرَزْدَ، وَرِيحَانَنَا الْوَرْدَ وَبِخُورُنَا النَّدُّ، وَكُنْتُ عِنْدَهُمْ أَعْقَلَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ. وَأَظْرَفَ مِنْ أَبِي
نُوَاسٍ، وَأَسْحَى مِنْ حَاتِمٍ، وَأَشَجَعَ مِنْ عَمْرٍو، وَأَبْلَغَ مِنْ سَحْبَانَ وَابْنِ وَأَدَهَى مِنْ قَصِيرٍ، وَأَشْعَرَ مِنْ جَرِيرٍ،
وَأَعْدَبَ مِنْ مَاءِ الْفَرَاتِ، وَأَطِيبَ مِنَ الْعَافِيَةِ، لِبِدْلِي وَمُرُوعَتِي، وَإِثْلَافِ ذَخِيرَتِي، فَلَمَّا خَفَّ الْمَتَاعُ، وَأَنْحَطَّ
الشَّرَاعُ وَفَرَّغَ الْجِرَابُ، تَبَادَرَ الْقَوْمُ الْبَابَ، لَمَّا أَحْسَوْا بِالْقِصَّةِ، وَصَارَتْ فِي قُلُوبِهِمْ غُصَّةً، وَدَعَوْنِي بَرِصَةً،
وَأَنْجَبُوا لِلْفِرَارِ كَرَمِيَّةَ الشَّرَارِ، وَأَخَذْتُهُمُ الصُّجْرَةَ، فَانْسَلُّوا قَطْرَةَ قَطْرَةً، وَتَفَرَّقُوا يَمِينَةً وَيَسْرَةً، وَبَقِيَتْ عَلَيَّ
الْأَجْرَةُ، قَدْ أُرْتُونِي الْحَسْرَةَ، وَاشْتَمَلَتْ مِنْهُمْ عَلَى الْعِبْرَةَ لَا أَسَاوِي بَعْرَةَ، وَحِيداً فَرِيداً كَالْيَوْمِ، الْمَوْسُومِ
بِالشُّومِ، أَقْعُ وَأَقُومُ، كَأَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ لَمْ يَكُنْ، وَتَدِمْتُ حِينَ لَمْ تَنْفَعْنِي النَّدَامَةُ، فَبَدَلْتُ بِالْجَمَالِ وَحِشَّةً،
وَصَارَتْ بِي طُرُشَةٌ، أَقْبَحُ مِنْ رَهْطَةِ الْمُنَادِي، كَأَنِّي رَاهِبٌ عِبَادِي، وَقَدْ ذَهَبَ الْمَالُ وَبَقِيَ الطَّنْزُ، وَحَصَلَ
بِيَدِي ذَنْبُ الْعَنْزِ، وَحَصَلَتْ فِي بَيْتِي وَحْدِي مُتَفَتِّتَةٌ كَبِيدِي، لِنَعْسِ جَدِّي، قَدْ قَرَّحَتْ دُمُوعِي خَدِّي، أَعْمُرُ
مَنْزِلاً دَرَسَتْ طُلُوبُهُ، وَعَفَّتْ مَعَالِمُهُ سُبُوبُهُ، فَأُضْحَى وَأَمْسَى بَرِيعَهُ الْوُحُوشِ، تَجُولُ وَتَتَوَشُّ، وَقَدْ ذَهَبَ
جَاهِي، وَنَفَدَتْ صِحَاحِي، وَقَلَّ مَرَاحِي، وَسَلَّحْتُ فِي رَاحِي، وَرَفَضَنِي الثَّدْمَاءُ، وَالْإِخْوَانُ الْقُدَمَاءُ، لَا يُرْفَعُ
لِي رَأْسٌ، وَلَا أَعُدُّ مِنَ النَّاسِ، أَوْتَحُّ مِنْ بَزِيْعِ الْهَرَّاسِ وَرَزِينِ الْمَرَّاسِ، أَتَرَدَّدُ عَلَى الشَّطِّ، كَأَنِّي رَاعِي الْبَطِّ،
أَمْسِي وَأَنَا حَافِي، وَأَتَّبِعُ الْفِيَّافِي، عَيْنِي سَخِينَةٌ، وَنَفْسِي رَهِينَةٌ، كَأَنِّي مَجْتُونٌ قَدْ أَقْلَتَ مِنْ دَيْرٍ، أَوْ عَيْرٍ يَدُورُ
فِي الْحَيْرِ، أَشَدُّ حُزْناً مِنَ الْخُنْسَاءِ عَلَى صَخْرٍ. وَمِنْ هُنْدٍ عَلَى عَمْرٍو وَقَدْ تَاهَ عَقْلِي، وَتَلَاثَنْتُ صِحَّتِي،
وَفَرَعْتُ صُرَّتِي، وَفَرَّ غَلَامِي، وَكَثُرَتْ أَحْلَامِي، وَجَزْتُ فِي الْوَسْوَاسِ الْمَقْدَارِ، وَصِرْتُ بِمَنْزِلَةِ الْعُمَّارِ،
وَشَيْطَانِ الدَّارِ، أَظْهَرَ بِاللَّيْلِ وَأَخْفَى بِالنَّهَارِ أَشْأَمُ مِنْ حَفَّارٍ وَأَثْقَلُ مِنْ كِرَاءِ الدَّارِ وَأُرْعَنُ مِنْ طَيْطِيءِ الْقَصَّارِ
وَأَحْمَقُ مِنْ دَاوُدَ الْعَصَّارِ وَقَدْ حَالَفْتَنِي الْقَلَّةُ وَشَمَلْتَنِي الدَّلَّةُ، وَخَرَجْتُ مِنَ الْمَلَّةِ، وَأَبْغَضْتُ فِي اللَّهِ، وَكُنْتُ
أَبَا الْعَبَّاسِ، فَصِرْتُ أَبَا عَمَلَسٍ. قَدْ صَلَّلْتُ الْمَحَجَّةَ، وَصَارَتْ عَلَيَّ الْحُجَّةَ، لَا أَجِدُ لِي نَاصِراً، وَالْإِفْلَاسُ
عِنْدِي أَرَاهُ حَاضِراً، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ قَدْ صَعَبَ، وَالزَّمَانَ قَدْ كَلَبَ، التَّمَسْتُ الدَّرْهَمَ فَإِذَا هُوَ مَعَ النَّسْرَيْنِ،
وَغِنْدٌ مُنْقَطِعٌ

الْبَحْرَيْنِ، وَأَبْعَدَ مِنَ الْفَرَقْدَيْنِ. فَخَرَجْتُ أَسِيحُ كَأَنِّي الْمَسِيحُ، فَجَلْتُ خُرَاسَانَ وَالْحَرَابَ مِنْهَا وَالْعُمْرَانَ، إِلَى
كَرْمَانَ وَسَجِسْتَانَ، وَجِيلَانَ إِلَى طَبْرِسْتَانَ وَإِلَى عَمَانَ إِلَى السَّنْدِ، وَالْهِنْدِ، وَالتَّوْبَةِ، وَالْقُبْطِ، وَالْيَمَنِ،
وَالْحِجَازِ، وَمَكَّةَ، وَالطَّائِفَ، أَجُولُ الْبَرَارِيَّ وَالْقَفَّارِ، وَأَصْطَلِي بِالنَّارِ، وَأَوِي مَعَ الْحِمَارِ، حَتَّى اسْوَدَّتْ
وَجَنَّتَايَ، وَتَقَلَّصْتُ خُصِيَّتَايَ، فَجَمَعْتُ مِنَ الْبُؤَادِرِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَسْمَارِ، وَالْقَوَائِدِ وَالْآثَارِ، وَأَشْعَارِ
الْمُنْتَظَرِّقِينَ، وَسُخْفِ الْمُهَيَّنِ، وَأَسْمَارِ الْمُتَيَّمِينَ، وَأَحْكَامِ الْمُتَفَلِّسِينَ، وَحِيلِ الْمُشْعُودِينَ، وَنَوَامِيسِ الْمُتَمَخَّرِقِينَ،
وَبُؤَادِرِ الْمُنَادِمِينَ، وَرَزَقِ الْمُجْتَمِينَ، وَلُطْفِ الْمُتَطَبِّينِ، وَكِيَادِ الْمُخْتَبِينَ، وَدَخْمَسَةِ الْجَرَابِذَةِ، وَشَيْطَانَةِ الْأَبَالِسَةِ،
وَمَا قَصَرَ عَنْهُ فِتْيَا الشُّعْبِيِّ، وَحَفِظَ الصَّبِيِّ. وَعَلِمَ الْكَلْبِيُّ. فَاسْتَرَفَدْتُ وَاجْتَدَيْتُ، وَتَوَسَّلْتُ وَتَكَدَيْتُ،

وَمَدَحَتْ وَهَاجَيْتُ، حَتَّى كَسَبْتُ ثَرَوَةً مِنَ الْمَالِ، وَاتَّخَذْتُ مِنَ الصَّفَاحِ الْهِنْدِيَّةِ، وَالْقَضْبِ الْيَمَانِيَّةِ،
وَالدَّرُوعِ السَّابِرِيَّةِ. وَالذَّرْقِ الثَّبَتِيَّةِ، وَالرَّمَّاحِ الْخَطِيَّةِ، وَالْحِرَابِ الْبِرْبَرِيَّةِ، وَالْحَيْلِ الْعَتَاقِ الْجُرْدِيَّةِ، وَالْبِغَالِ
الْأَرْمَنِيَّةِ، وَالْحُمْرِ الْمَرِيَسِيَّةِ، وَالذِّيَابِيحِ الرَّومِيَّةِ، وَالخُرُوزِ السُّوسِيَّةِ، وَأَنْوَاعِ الطَّرْفِ وَاللُّطْفِ، وَالْهَدَايَا
وَالثَّحَفِ، مَعَ حُسْنِ الْحَالِ، وَكَثْرَةِ الْمَالِ، فَلَمَّا قَلِمْتُ بَعْدَادَ وَوَجَدَ الْقَوْمُ خَبْرِي، وَمَا رَزَقْتُهُ فِي سَفَرِي،
سُرُّوا بِمَقْدَمِي، وَصَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيَّ، يَشْكُونَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْوَحْشَةِ لِقَدِيدِي، وَمَا نَالَهُمْ لِبُعْدِي، وَشَكَرُوا
شِدَّةَ الشُّوقِ، وَرَزَاءَ التَّوَقُّوعِ وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَعْتَرِضُ مِمَّا فَعَلَ، وَيُظْهِرُ التَّوَدُّعَ عَلَى مَا صَنَعَ، فَأَوْهَمْتُهُمْ أَنِّي
قَدْ صَفَحْتُ عَنْهُمْ، وَلَمْ أَظْهِرْ لَهُمْ أَثَرَ الْمَوْجِدَةِ عَلَيْهِمْ بِمَا تَقَدَّمَ، فَطَابَتْ نُفُوسُهُمْ، وَسَكَتَ جَوَارِحُهُمْ،
وَانصَرَفُوا عَلَى ذَلِكَ، وَعَادُوا إِلَيَّ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، فَحَبَسْتُهُمْ عِنْدِي، وَوَجَّهْتُ وَكَيْلِي إِلَى السُّوقِ فَلَمْ يَدْعُ
شَيْئًا تَقَدَّمَتْ بِشِرَائِهِ إِلَّا أَتَى بِهِ، وَكَانَتْ لَنَا طَبَاخَةٌ حَادِقَةٌ؛ فَأَخَذْتُ عِشْرِينَ لَوْنًا مِنْ قَلَايَا مُحْرَقَاتٍ، وَأَلْوَانًا
مِنْ طَبَاهِجَاتٍ، وَنَوَادِرَ مَعْدَاتٍ، وَأَكَلْنَا وَاتَّقَلْنَا إِلَى مَجْلِسِ الشَّرَابِ، فَأَحْضَرْتُ لَهُمْ زَهْرَاءَ خَنْدَرِيَسِيَّةً،
وَمَعْنِيَاتٍ حَسَنَاتٍ مُحْسَنَاتٍ، فَأَخَذُوا فِي شَأْنِهِمْ وَشَرِبْنَا، فَمَضَى لَنَا أَحْسَنُ يَوْمٍ يَكُونُ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَعْدَدْتُ
لَهُمْ بَعْدَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ صَنًّا مِنْ صِنَانِ الْبَادَنْجَانِ، كُلُّ صَنٍّ بِأَرْبَعَةِ آذَانٍ، وَاسْتَأْجَرَ غُلَامِي لِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ حَمَلًا، كُلُّ حَمَالٍ بِدِرْهَمَيْنِ، وَعَرَفَ الْحَمَالِينَ مَنَازِلَ الْقَوْمِ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَافَاةِ بَعِشَاءِ الْآخِرَةِ،
وَتَقَدَّمْتُ إِلَى غُلَامِي وَكَانَ دَاهِيَةً أَنْ يَدْفَعَ إِلَى الْقَوْمِ بِالْمَنْ وَالرَّطْلَ، وَيَصْرِفَ لَهُمْ، وَأَنَا أُبْخِرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
النَّدَّ وَالْعُودَ وَالْعَنْبَرَ، فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ إِلَّا وَهُمْ مِنَ السُّكْرِ أَمْوَاتٌ لَا يَعْقِلُونَ وَوَأَفَانَا غِلْمَانُهُمْ عِنْدَ غُرُوبِ
الشَّمْسِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِدَابَّةٍ أَوْ حِمَارٍ أَوْ بَعْلَةٍ، فَعَرَفْتُهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدِي اللَّيْلَةَ بَاطْنُونَ، فَانصَرَفُوا، وَوَجَّهْتُ إِلَى
بِلَالِ الْمُزَيْنِ فَأَحْضَرْتُهُ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ طَعَامًا فَأَكَلَ، وَسَقَيْتُهُ مِنْ

الشَّرَابِ الْقَطْرَ بُلِيٍّ، فَشَرِبَ حَتَّى تَمَلَّ، وَجَعَلْتُ فِي فِيهِ دِينَارَيْنِ أَحْمَرَيْنِ، وَقُلْتُ: شَأْنُكَ وَالْقَوْمِ، فَحَلَقَ فِي
سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَ عَشْرَةَ لِحِيَّةً، فَصَارَ الْقَوْمُ جُرْدًا مُرْدًا، كَأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَجَعَلْتُ لِحِيَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مَصْرُورَةً فِي ثَوْبِهِ، وَمَعَهَا رُقْعَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا: " مَنْ أَضْمَرَ بِصَدِيقِهِ الْغَدْرَ وَتَرَكَ الْوَفَاءَ، كَانَ هَذَا مُكَافَأَتَهُ
وَالْجَزَاءَ ". وَجَعَلْتُهَا فِي جَيْبِهِ، وَشَدَدْتُهَا فِي الصَّنَانِ، وَوَأْفَى الْحَمَالُونَ عِشَاءَ الْآخِرَةِ، فَحَمَلُوهُمْ بِكَرَّةٍ
خَاسِرَةٍ، فَحَصَلُوا فِي مَنَازِلِهِمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا رَأَوْا فِي نُفُوسِهِمْ هَمًّا عَظِيمًا، لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ تَاجِرٌ إِلَى دُكَّانِهِ،
وَلَا كَاتِبٌ إِلَى دِيْوَانِهِ، وَلَا يَظْهَرُ لِأَخْوَانِهِ، فَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ يَأْتِي خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ خَوْلِهِمْ، وَمِنْ نِسَاءِ وَغِلْمَانِ
وَرِجَالٍ يَشْتُمُونِي وَيُزُوتُونِي، وَيَسْتَحْكِمُونَ اللَّهَ عَلَيَّ، وَأَنَا سَاكِتٌ لَا أَرُدُّ عَلَيْهِمْ جَوَابًا، وَلَمْ أَعْبَأُ بِمَقَالِهِمْ،
وَشَاعَ الْخَيْرُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ بِفِعْلِي مَعَهُمْ، وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَزْدَادُ حَتَّى بَلَغَ الْوَزِيرَ الْقَاسِمَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ. وَذَلِكَ
أَنَّهُ طَلَبَ كَاتِبًا لَهُ فَافْتَقَدَهُ، فَقِيلَ: إِنَّهُ فِي مَنْزِلِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ، قَالَ: وَلِمَ؟ قِيلَ: مِنْ أَجْلِ مَا صَنَعَ أَبُو
الْعَبَّاسِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ امْتَحَنَ بَعْشَرَتَهُ وَمَنَادَمَتَهُ، فَضَحِكَ حَتَّى كَادَ يُوَلُّ فِي سَرَوِيلِهِ أَوْ بَالٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ
قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ وَمَا أَخْطَأَ فِيمَا فَعَلَ، ذَرُوهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِمْ، ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ خِلْعَةً سَنِيَّةً، وَقَادَ فَرَسًا
بِمَرْكَبٍ، وَحَمَلَ إِلَيَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، لَاسْتِحْسَانِهِ فِعْلِي، وَمَكَّنْتُ فِي مَنْزِلِي شَهْرَيْنِ أَنْفَقَ وَأَكَلَ
وَأَشْرَبَ، ثُمَّ ظَهَرْتُ بَعْدَ الْاسْتِئْذَانِ، فَصَالَحَنِي بَعْضُهُمْ لِعِلْمِهِ بِمَا صَنَعَ الْوَزِيرُ، وَحَلَفَ بَعْضُهُمْ بِالطَّلَاقِ

الثلاث وبعثي غلمانہ وجواریه أنه لا يكلمني من رأسه أبداً، فلا والله العظيم شأنه، العليُّ برهانه، ما اكرتت بذلك، ولا باليت، ولا حكَّ أصلُ أذني، ولا أوجع بطني، ولا صرني، بل سرني، وإنما كانت حاجة في نفس يعقوب قضاها. رُبلي، فشرب حتى ثمل، وجعلت في فيه دينارين أحمرين، وقلت: شأنك والقوم، فحلق في ساعة واحدة خمس عشرة لحيّة، فصار القوم جرداً مرداً، كأهل الجنة، وجعلت لحيّة كل واحد منهم مصرورة في ثوبه، ومعها رُقعة مكتوب فيها: " من أضمر بصديقه العذر وترك الوفاء، كان هذا مكافأته والجزاء ". وجعلتها في جيبه، وشدّناهم في الصنان، ووافي الحمالون عشاء الآخرة، فحملوهم بكرّة خاسرة، فحصلوا في منازلهم، فلما أصبحوا رأوا في نفوسهم همماً عظيماً، لا يخرج منهم تاجر إلى دكانه، ولا كاتب إلى ديوانه، ولا يظهر لإخوانه، فكان كل يوم يأتي خلق كثير من خولهم، ومن نساء وغلمان ورجال يشتموني ويؤثوني، ويستحكّمون الله عليّ، وأنا ساكت لا أردُّ عليهم جواباً، ولم أعبأ بمقالهم، وشاع الخبر بمدينة السلام بفعلهم معهم، ولم يزل الأمر يزداد حتى بلغ الوزير القاسم بن عبيد الله. وذلك أنه طلب كتاباً له فافتقده، فقيل: إنّه في منزله لا يقدر على الخروج، قال: ولم؟ قيل: من أجل ما صنع أبو العباس؛ لأنّه كان امتحن بعشرته ومنادمته، فضحك حتى كاد يبول في سراويله أو بال، والله أعلم. ثم قال: والله لقد أصاب وما أخطأ فيما فعل، ذرؤه فإنه أعلم الناس بهم، ثم وجه إليّ خلعاً سنيّة، وقاد فرساً بمركب، وحمل إليّ خمسين ألف درهم، لاستحسانه فعليّ، ومكثت في منزلي شهرين أنفق وأكل وأشرب، ثم ظهرت بعد الاستتار، فصالحني بعضهم لعلهم بما صنع الوزير، وحلف بعضهم بالطلاق الثلاث وبعثي غلمانہ وجواریه أنه لا يكلمني من رأسه أبداً، فلا والله العظيم شأنه، العليُّ برهانه، ما اكرتت بذلك، ولا باليت، ولا حكَّ أصلُ أذني، ولا أوجع بطني، ولا صرني، بل سرني، وإنما كانت حاجة في نفس يعقوب قضاها.

وإنما ذكرتُ هذا ونهتُ عليه ليؤخذ الحذر من أبناء الزمن، وتترك الثقة بالإخوان الأندال السفّل، وبفلان الوراق التمام الزراف الذي ينكر حق الأدياء، ويستخف بهم، ويستعير كتبهم لا يردها عليهم، والله المستعان، وعليه التكلان.

المقامة الدينارية

حدثنا عيسى بن هشام قال: اتفق لي نذر ندرته في دينار أتصدق به على أشحد رجل ببعداد، وسألت عنه، فدللت على أبي الفتح الإسكندري، فمضيت إليه لأتصدق به عليه، فوجدته في رُقعة، قد اجتمعت عليه في حلقة، فقلت: يا بني ساسان، أيكم أعرف بسليته، وأشحد في صنعته، فأعطيه هذا الدينار؟ فقال الإسكندري: أنا، وقال آخر من الجماعة: لا، بل أنا. ثم تناقشنا وتهارشنا حتى قلت: ليشتم كل منكما صاحبه، فمن غلب سلب، ومن عزّ بَرٌّ، فقال الإسكندري: يا برد العجوز، يا كربة تموز، يا وسخ الكوز، يا درهما لا يجوز، يا حديث المغنين، يا سنّة البوس، يا كوكب التحوس، يا وطأ الكبوس، يا نخمة الرأس، يا أم حبين، يا رمد العين، يا غداة الين، يا فراق المحيين، يا ساعة الحين يا مقتل الحسين يا ثقل الدين يا سمة الشين يا بريد الشوم يا طريد اللوم يا ثريد النوم يا بادية الرقوم يا منع الماعون يا سنّة

الطَّاعُونَ يَا بَغْيَ الْعَبِيدِ، يَا آيَةَ الْوَعِيدِ، يَا كَلَامَ الْمُعِيدِ، يَا أَقْبَحَ مِنْ حَتَّى، فِي مَوَاضِعَ شَتَّى، يَا دُودَةَ الْكَيْفِ،
يَا فُرُوقَةَ فِي الْمَصِيفِ، يَا تَنْحَنَحَ الْمُضِيفِ إِذَا كُسِرَ الرَّغِيفُ، يَا جُشَاءَ الْمُخْمُورِ، يَا نَكْهَةَ الصَّقُورِ، يَا وَتَدَ
الدُّورِ، يَا خَلْرُوقَةَ الْقُدُورِ، يَا أَرْبَعَاءَ لَا تَدُورُ، يَا طَمَعَ الْمُقْمُورِ، يَا ضَجَرَ اللَّسَانِ، يَا بَوْلَ الْخِصْيَانِ، يَا مُؤَاكَلَةَ
الْعُمَيَّانِ، يَا شَفَاعَةَ الْعُرْيَانِشِ، يَا سَيْتَ الصَّبِيَّانِ، يَا كِتَابَ التَّعَازِي، يَا قَرَارَةَ الْمَخَازِي، يَا بُخْلَ الْأَهْوَازِي، يَا
فُضُولَ الرَّازِي، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعْتَ إِحْدَى رِجْلَيْكَ عَلَى أَرُونْدَ، وَالْأُخْرَى عَلَى دُنْبَاوْنَدَ، وَأَخَذْتَ بِيَدِكَ قَوْسَ
قُرْحَ، وَنَدَفْتَ الْعَيْمَ فِي جِيَابِ الْمَلَائِكَةِ، مَا كُنْتَ إِلَّا حَلَّاجًا.
وَقَالَ الْآخَرُ: يَا قَرَادَ الْقُرُودِ، يَا لُبُودَ الْهُودِ: يَا نَكْهَةَ الْأَسُودِ، يَا عَدَمًا فِي وُجُودِ، يَا كَلْبًا فِي الْهَرَّاشِ، يَا
قُرْدًا فِي الْفَرَّاشِ، يَا قَرَعِيَّةً بِمَاشِ، يَا أَقْلَ مِنْ لَاشِ، يَا دُخَانَ النَّفْطِ، يَا صُنَانَ الْإِنْبِطِ، يَا زَوَالَ الْمُلْكِ، يَا
هَلَالَ لَهْلِكَ، يَا أَحْبَثَ مِمَّنْ بَاءَ بِذَلِّ الطَّلَاقِ، وَمَنْعَ الصَّدَاقِ، يَا وَحْلَ الطَّرِيقِ، يَا مَاءَ عَلَى الرَّبْقِ يَامُحْرَكِ
الْعَظْمِ يَامُعْجَلِ الْهَضْمِ يَا قَلْحَ الْأَسْتَانِ، يَا وَسَخَ الْآذَانِ، يَا أَجْرَ مِنْ قَلْسِ، يَا أَقْلَ مِنْ فَلْسِ، يَا أَفْضَحَ مِنْ
عَبْرَةٍ، يَا أَبْغَى مِنْ إِبْرَةٍ، يَا مَهَبَّ الْخُفِّ، يِضَا مَدْرَجَةَ الْأَكْفِ، يَا كَلِمَةَ لَيْتَ، يَا وَكْفَ الْيَيْتِ، يَا كَيْتَ
وَكَيْتَ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعْتَ أَسْتِكَ عَلَى التُّجُومِ، وَدَلَيْتَ رِجْلَكَ فِي التُّخُومِ، وَاتَّخَذْتَ الشَّعْرَى خُفًّا، وَالتُّرْيَا
رَفًّا، وَجَعَلْتَ السَّمَاءَ مَنَوَالًا، وَحَكَّتِ الْهَوَاءَ سِرْبَالًا، فَسَدَيْتَهُ بِالتَّسْرِ الطَّائِرِ، وَأَلْحَمْتَهُ بِالْفَلْكِ الدَّائِرِ، مَا
كُنْتَ إِلَّا حَائِكًا.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَيَّ الرَّجُلَيْنِ أَوْثَرُ؟! وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا بَدِيعُ الْكَلَامِ، عَجِيبُ الْمَقَامِ، أَلْدُّ
الْخِصَامِ، فَتَرَكَتُهُمَا، وَالِدَيْنَارُ مُشَاعٌ بَيْنَهُمَا، وَأَنْصَرَفْتُ وَمَا أَذْرِي مَا صَنَّعَ الدَّهْرُ بِهِمَا.
الْمَقَامَةُ الشَّعْرِيَّةُ
حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

كُنْتُ بِبِلَادِ الشَّامِ، وَأَنْصَمَّ إِلَيَّ رُفْقَةً، فَاجْتَمَعْنَا ذَاتَ يَوْمٍ فِي حَلَقَةٍ، فَجَعَلْنَا نَتَذَكَّرُ الشَّعْرَ قُورِدُ أَبِياتَ
مَعَانِيهِ، وَتَتَحَاجِي بِمَعَامِيهِ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَيْنَا فَتَى يَسْمَعُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ، وَيَسْكُتُ وَكَأَنَّهُ يَنْدَمُ، قَهْلْتُ: يَا فَتَى قَدْ
آذَانًا وَفُوفًا؛ فِيمَا أَنْ تَقْعُدَ، وَإِمَا أَنْ تَبْعُدَ، فَقَالَ: لَا يُمَكِّنِي الْقُعُودُ، وَلَكِنْ أَذْهَبُ فَأَعُودُ، فَالزُّمُوا مَكَائِكُمْ
هَذَا، قُلْنَا: نَفْعَلُ وَكَرَامَةً، ثُمَّ غَابَ بِشَخْصِيهِ، وَمَا لَيْتَ أَنْ عَادَ لَوْ قَتَيْتَهُ، وَقَالَ: أَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَبِيَاتِ؟ وَمَا
فَعَلْتُمْ بِالْمَعْمِيَّاتِ؟ سَلُونِي عَنْهَا، فَمَا سَأَلْتَاهُ عَنْ بَيْتٍ إِلَّا أَجَابَ، وَلَا عَنْ مَعْنَى إِلَّا أَصَابَ، وَلَمَّا نَفَضْنَا
الْكَتَابَيْنِ، وَأَفْنَيْنَا الْخِزَانَيْنِ، عَطَفَ عَلَيْنَا سَائِلًا، وَكَرَّ مُبَاحِنًا، فَقَالَ: عَرَفُونِي أَيُّ بَيْتٍ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ
يَذْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُفْلُهُ يَصْفَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نَصْفُهُ يَغْضَبُ، وَنِصْفُهُ يَلْعَبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُفْلُهُ أَجْرَبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ
عَرُوضُهُ يُحَارِبُ، وَضَرْبُهُ يُقَارِبُ وَأَيُّ بَيْتٍ كُفْلُهُ عَقَارِبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ سَمَجٌ وَضَعُهُ، وَحَسَنٌ قَطْعُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ
لَا يَرِقُّ دَمْعُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَأْبِقُ كُفْلُهُ، إِلَّا رِجْلُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ أَطْوَلُ مِنْ مِثْلِهِ، كَأَنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يُمَكِّنُ نَبْضَهُ، وَلَا تُحْفَرُ أَرْضُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ كَامِلٌ وَنِصْفُهُ سَرَابِلُ؟ وَأَيُّ
بَيْتٍ لَا تُحْصَى عِدَّتُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يُرِيكَ مَا يُسِرُّ بِهِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يَسْعُهُ الْعَالَمُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَضْحَكُ
وَنِصْفُهُ يَأْلَمُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ إِنْ حُرِّكَ غُصْنُهُ، ذَهَبَ حُسْنُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ إِنْ جَمَعْنَاهُ، ذَهَبَ مَعْنَاهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ إِنْ

أَفَلْتَنَاهُ، أَضَلَلْنَاهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ شَهَدَهُ سَمٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ مَدَحَهُ دَمٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَهَطَهُ حُلُوٌّ وَتَحَنَّهُ عَمٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ حَلَّهُ عِقْدٌ، وَكُلَّهُ تَقْدٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نَصَفَهُ مَدٌّ، وَنِصْفَهُ رَدٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفَهُ رَفْعٌ، وَرَفَعَهُ صَفْعٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ طَرَدَهُ مَدْحٌ؟ وَعَكُسَهُ قَدْحٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ فِي طَوْفِ صَلَاةِ الْخَوْفِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَأْكُلُهُ الشَّاءُ مَتَّى شَاءَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ إِذَا أَصَابَ الرَّاسَ هَشَمَ الْأَضْرَاسَ، وَأَيُّ بَيْتٍ طَالَ، حَتَّى بَلَغَ سِتَّةَ أَرْطَالٍ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ قَامَ، ثُمَّ سَقَطَ وَنَامَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَرَادَ أَنْ يَنْقُصُ فَرَادَا؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كَادَ يَذْهَبُ فَعَادَا؟ وَأَيُّ بَيْتٍ حَرَبَ الْعِرَاقَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ فَحَحَ الْبَصْرَةَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ ذَابَ، تَحْتَ الْعَذَابِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ شَابَ، قَبْلَ الشَّبَابِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ عَادَ قَبْلَ الْمِيعَادِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ حَلَّ، ثُمَّ اضمَحَلَّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَمَرَ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَصْلَحَ، حَتَّى صَلَحَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ اسْبَقَ مِنْ سَهْمِ الطَّرِمَاحِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ خَرَجَ مِنْ عَيْنِهِمْ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ ضَاقَ، وَوَسِعَ الْآفَاقَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ رَجَعَ، فَهَاجَ الْوَجَعَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفَهُ ذَهَبٌ، وَبَاقِيَهُ ذَنْبٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ بَعْضُهُ ظِلَامٌ، وَبَعْضُهُ مَدَامٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ جَعَلَ فَاعِلُهُ مَفْعُولًا، وَعَاقِلُهُ مَعْقُولًا؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ حُرْمَةٌ؟ وَأَيُّ بَيْتَيْنِ هُمَا كَهَطَارِ الْإِبِلِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَنْزِلُ مِنْ عَالٍ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ طِيرَتْهُ فِي الْفَالِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ آخِرُهُ يَهْرُبُ، وَأَوَّلُهُ يَطْلُبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَوَّلُهُ يَهْبُ، وَآخِرُهُ يَنْهَبُ؟

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَسَمِعْنَا شَيْئًا لَمْ نَكُنْ سَمِعْنَاهُ، وَسَأَلْنَاهُ التَّفْسِيرَ فَمَنَعْنَا، وَحَسِبْنَاهُ أَلْفَاظًا قَدْ جَوَّدَ نَحْتَهَا، وَلَا مَعَانِي تَحْتَهَا، فَقَالَ: اخْتَارُوا مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ خَمْسًا لِأُفَسِّرَهَا، وَاجْتَهِدُوا فِي الْبَاقِي أَيَّامًا، فَلَعَلَّ إِنَاءَكُمْ يَرِشَحُ، وَلَعَلَّ خَاطِرَكُمْ يَسْمَحُ، ثُمَّ إِنَّ عَجْرَتُمْ فَاسْتَأْنَفُوا التَّلَاقِي، لِأُفَسِّرَ الْبَاقِي، وَكَانَ مِمَّا اخْتَرْنَا الْبَيْتَ الَّذِي سَمَّجَ وَضَعَهُ وَحَسَنَ قَطْعَهُ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْهُ فَقَالَ: هُوَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ: فَيْتَنَا يَرَانَا اللَّهُ شَرَّ عِصَابَةٍ ... تُجَرَّرُ أَدْيَالُ الْفُسُوقِ وَلَا فَخْرُ قُلْنَا: فَالْبَيْتُ الَّذِي حَلَّهُ عِقْدٌ، وَكُلَّهُ تَقْدٌ، فَقَالَ: قَوْلُ الْأَعْشَى: دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ ... فَلَا تَحْسَبْنَا بِنْتِقَادِهَا وَحَلَّهُ أَنْ يُقَالَ دَرَاهِمُنَا جَيِّدٌ كُلُّهَا وَلَا يَخْرُجُ بِهَذَا الْحَلِّ عَنْ وَزْنِهِ قُلْنَا: فَالْبَيْتُ الَّذِي نِصْفُهُ مَدٌّ، وَنِصْفُهُ رَدٌّ، فَقَالَ: قَوْلُ الْبَكْرِيِّ:

أَتَاكَ دِينَارٌ صِدْقٍ ... يَنْقُصُ سِتِّينَ فَلَسًا

مَنْ أَكْرَمَ النَّاسِ إِلَّا ... أَصْلًا وَفِرْعًا وَنَفْسًا

قُلْنَا: فَالْبَيْتُ الَّذِي يَأْكُلُهُ الشَّاءُ، مَتَّى شَاءَ، قَالَ: بَيْتُ الْقَائِلِ

فَمَا لِلنَّوَى؟ جُذَّ النَّوَى، قُطِعَ النَّوَى رَأَيْتُ النَّوَى فَطَاعَةَ لِلْقَرَّانِ

قُلْنَا فَالْبَيْتُ الَّذِي طَالَ، حَتَّى بَلَغَ سِتَّةَ أَرْطَالٍ، قَالَ: بَيْتُ ابْنِ الرَّؤُمِيِّ:

إِذَا مَنْ لَمْ يَمْنَنْ بِمَنْ يَمْنُهُو قَالَ لِنَفْسِي: أَيُّهَا النَّفْسُ أَهْمَلِي

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمَسَائِلَ لَيْسَتْ عَوَاطِلَ، وَاجْتَهَدْنَا، فَبَعْضُهَا وَجَدْنَا، وَبَعْضُهَا اسْتَعَدْنَا،

فَقُلْتُ عَلَى أَثَرِهِ وَهُوَ عَادٍ:

تَفَاوَتَ النَّاسُ فَضْلًا ... وَأَشْبَهَ الْبَعْضُ بَعْضًا

لَوْلَاهُ كُنْتُ كَرَضَوِي ... طَوْلًا وَعُمُقًا وَعَرَضًا

المقامة الملوكية

حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت في منصرفي من اليمن، وتوجهي إلى نحو الوطن، أسرى ذات ليلة لا سائح بها إلا الضبع، ولا بارح إلا السبع، فلما انضى نصل الصباح، وبرز جين الصباح، عن لي في البراح، راكب شاكى السلاح، فأخذني منه ما يأخذ الأعزل، من مثله إذا أقبل، لكنني تجلدت فوقفت وقلت: أرضك لا أم لك، فدوني شرط الحداد، وخرط القناد، وحمية أزدية، وأنا سلم إن كنت، فمن أنت؟ فقال: سلماً أصبت، ورقيقاً كما أحببت، فقلت: خيراً أجبت، وسرناً فلما تخالينا، وحين تجالينا، أجلت القصة عن أبي الفتح الإسكندري، وسألني عن أكرم من لقيته من الملوك، فذكرت ملوك الشام، ومن بها من الكرام، وملوك العراق ومن بها من الأشراف، وأمرء الأَطراف، وسقت الذكرك، إلى ملوك مصر، فرويت ما رأيت، وحدثته، بعوارف ملوك اليمن، ولطائف ملوك الطائف، وختمت الجملة، بذكر سيف الدولة، فأنشأ يقول:

يا سارياً بنجوم الليل يمدحها ولو رأى الشمس لم يعرف لها خطراً
وواصفاً للسواقي هبك لم تزر ال بحر المحيط ألم تعرف له خبراً
من أبصر اللث لم يعدل به حجراً ومن رأى خلفاً لم يذكر البشراً
زرة تزر ملكاً يعطي بأربعة لم يحوها أه حد وانظر إليه ترى

أيامه غوراً، ووجهه قمراً، ... وعزمه قدراً، وسببه مطراً

ما زلت أمدح أقواماً أظنهم صفو الزمان؛ فكأنوا عنده كدرا

قال عيسى بن هشام: فقلت: من هذا الملك الرقيم الكريم؟ فقال: كيف يكون، ما لم تبلغه الطنون؟ وكيف أقول، ما لم تقبله العقول؟ ومتى كان ملك يأنف الأكارم، إن بعثت بالدراهم؟ والذهب؟ أيسر ما يهب، والائف، لا يعمه إلا الخلف، وهذا جبل الكحل قد أضر به الميل فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجريل؟ وهل يجوز أن يكون ملك يرجع من البذل إلى سرفه، ومن الخلق إلى شرفه، ومن الدين إلى كلفه ومن الملك إلى كنفه، ومن الأصل إلى سلفه، ومن النسل إلى خلفه:
فليت شعري من هدي ما أثرهماذا الذي يلوغ النجم ينتظر؟!.

المقامة الصفرية

حدثنا عيسى بن هشام قال: لما أردت القفول من الحج، دخل إلي فتى فقال: عندي رجل من نجار الصفر، يدعو إلى الكفر، ويرقص على الظفر، وقد أدبته الغربية، وأدنتي الحسبة إليك، لأمثل حاله لديك، وقد خطب منك جارية صفراء، تعجب الحاضرين، وتسر الناظرين، فإن أحببت تنجب منهما ولد يعم البقاع والأسماع، فإذا طويت هذا الریط، و...؟ ثبيت هذا الخيط، يكون قد سبقك إلى بلدك، فرأيك في نشر ما في يدك.

قال عيسى بن هشام: فعجبت من إيراده، ولطفه في سؤاله، وأجبت في مراده، فأنشأ يقول:

المجد يخذع باليد السفلى ... ويد الكريم ورأيه أه على.

المقامة السارية

حدثنا عيسى بن هشام قال: بينا نحن بسارية، عند واليها، إذ دخل عليه فتى به ردع صفار، فانتفض المجلس له قياماً، وأجلس في صدره إعظاماً، ومعتني الحشمة له من مسألتي إياه عن اسمه، وأبتدأ فقال للوالي: ما فعلت في الحديث الأمسي، لعلك جعلته في المنسي؟! فقال: معاذ الله، ولكن عاقبي عن بلوغه عذراً لا يمكن شرحه، ولا يؤسى جرحه، فقال الداحل: يا هذا قد طال مطال هذا الوعد، فما أجد غذك فيه إلا كيومك، ولا يومك فيه إلا كأمسك، فما أشبهك في الإخلاف، إلا بشجر الخلاف، زهره يملأ العين، ولا ثمر في البين.

قال عيسى بن هشام: فلما بلغ هذا المكان قطعت عليه، فقلت: حرسك الله! ألسنت الإسكندري؟ فقال: وأدام حراستك، ما أحسن فراستك! فقلت: مرحباً بأمر الكلام، وأهلاً بصالاة الكرام، لقد نشدتها حتى وجدتها، وطلبتها، حتى أصبتها، ثم ترافقنا حتى اجتدبني نجد، ولقمة وهد، وصعدت وصوب، وشرقت وغرب، فقلت على أثره:

يأليت شعري عن أخ ... ضاقت يده وطال صيته

قد بات بارحة لدي ... فأين ليلتنا مبيته

لا درّ درّ الفقر فة و طريده وبه رزيته

لا سلطن عليه من ... خلف بن أحمد من يميته

المقامة التميمية

حدثنا عيسى بن هشام قال:

وليت بعض الولايات من بلاد الشام، ووردها سعد بن بدر أخو فرارة، وقد ولي الوزارة، وأحمد الوليد، على عمل البريد، وخلف بن سالم، على عمل المطالم، وبعض بني ثوابه، وقد ولي الكتابة وجعل عمل الرمام، إلى رجل من أهل الشام، فصارت ثخفة الفضلاء، ومحط رحالهم، ولم يزل يرد الواحد بعد الواحد، حتى امتلأت العيون من الحاضرين، وتقلوا على القلوب، وورد فيمن ورد أبو التدي التميمي، فلم

تقف عليه العيون، ولا صفت له القلوب، ودخل يوماً إلي فقدرته حق قدره، وأعدته من المجلس في صدره، وقلت: كيف يرجى الأستاذ عمرة؟ وكيف يرى أمره؟ فنظر ذات اليمين وذات اليسار، فقال: بين الحسران والحسار، والنل والصغار وقوم كروث الحمار، يشمهم الإقبال وهم منتنون، ويحسن إليهم فلا يحسنون، أما والله لقد وردت منهم على قوم ما يشبههم من الناس، غير الرأس واللباس، وجعل يقول:

فدى لك يا سجستان البلاد ... وللملك الكرم بك العباد

هب الأيام تسعدني وهني ... تبلغني راحلة وزاد

فمن لي بالذي قد مات منه ... وبالعمر الذي لا يستعاد؟

المقامة الحمريّة

حدثنا عيسى بن هشام قال: اتفق لي في عنفوان الشيبية خلق سجيح، ورأي صجيح، فعدلت ميزان عقلي،

وَعَدَلْتُ بَيْنَ جَدِّي وَهَزْلِي، وَاتَّخَذْتُ إِخْوَانًا لِلْمَقَّةِ، وَآخِرِينَ لِلنَّفَقَةِ، وَجَعَلْتُ النَّهَارَ لِلنَّاسِ، وَاللَّيْلَ لِلْكَاسِ.
قَالَ: وَاجْتَمَعَ إِلَيَّ فِي بَعْضِ لَيَالِي إِخْوَانُ الْخُلُوعِ، ذُووُ الْمَعَانِي الْخُلُوعِ، فَمَا زِلْنَا نَتَعَاطَى نُجُومَ الْأَقْدَاحِ حَتَّى
نَقْدَ مَا مَعَنَا مِنَ الرَّاحِ.

قَالَ: وَاجْتَمَعَ رَأْيُ التَّدْمَانِ، عَلَى فَصْدِ الدَّنَانِ، فَاسَلْنَا نَفْسَهَا، وَبَقِيَتْ كَالصَّدْفِ بِلا دُرٍّ، أَوْ الْمَصْرِ بِلا حُرٍّ.

قَالَ: وَلَمَّا مَسَّتْنَا حَالَنَا تِلْكَ دَعَتْنَا دَوَاعِي الشَّطَارَةِ، إِلَى حَانَ الْحَمَارَةِ، وَاللَّيْلَ أَخْضَرُ الدِّيَابِجِ، مُعْتَلِمُ
الْأَمْوَاجِ، فَلَمَّا أَخَذْنَا فِي السَّبْحِ، ثَوَّبَ مُنَادِي الصُّبْحِ، فَخَسَّ شَيْطَانُ الصَّبَوةِ، وَتَبَادَرْنَا إِلَى الدَّعْوَةِ، وَقَمْنَا
وَرَاءَ الْإِمَامِ، قِيَامَ الْبِرَّةِ الْكِرَامِ، بَوَقَارٍ وَسَكِينَةٍ، وَحَرَكَاتٍ مَوْزُونَةٍ، فَلِكُلِّ بِضَاعَةٍ وَقْتٌ، وَلِكُلِّ صِنَاعَةٍ
سَمْتٌ، وَإِمَامُنَا يَجِدُ فِي خَفْضِهِ وَرَفْعِهِ، وَيَدْعُونَا بِإِطَالَتِهِ إِلَى صَفْعِهِ، حَتَّى إِذَا رَاجَعَ بَصِيرَتَهُ، وَرَفَعَ بِالسَّلَامِ
عَقِيرَتَهُ، تَرَبَّعَ فِي رُكْنٍ مَحْرَابِهِ، وَأَقْبَلَ بَوَجْهِهِ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَجَعَلَ يُطِيلُ إِطْرَاقِهِ، وَيُذِيْمُ اسْتِنشَاقَهُ، ثُمَّ قَالَ:
أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ خَلَطَ فِي سِيرَتِهِ، وَابْتَلَى بِقَاذُورَتِهِ، فَلْيَسْعُهُ دِيمَاسُهُ، دُونَ أَنْ تُنَجَّسَنَا أَنْفَاسُهُ، إِلَيَّ لِأَجْدُ مِنْذُ
الْيَوْمِ، رِيحَ أُمِّ الْكَبَائِرِ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ بَاتَ صَرِيحَ الطَّاعُوتِ، ثُمَّ ابْتَكَرَ إِلَى هَذِهِ السُّيُوتِ، الَّتِي
أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ، وَبِدَابِرِ هَوْلَاءِ أَنْ يُقَطَّعَ، وَأَشَارَ إِلَيْنَا، فَتَأَلَّبَتِ الْجَمَاعَةُ عَلَيْنَا، حَتَّى مُزِقَتِ الْأَرْدِيَّةُ، وَدَمِيَّتِ
الْأَقْفِيَّةُ، وَحَتَّى أَقْسَمْنَا لَهُمْ لَا عُدْنَا، وَأَفْلَتْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ وَمَا كِدْنَا، وَكُلْنَا مُعْتَفِرًا لِسَلَامَةٍ، مِثْلَ هَذِهِ الْآفَةِ،
وَسَأَلْنَا مَنْ مَرَّ بِنَا مِنَ الصَّبِيَّةِ، عَنْ إِمَامِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ، فَقَالُوا: الرَّجُلُ التَّقِيُّ، أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ، فَقُلْنَا:
سُبْحَانَ اللَّهِ! رَبِّمَا أَبْصَرَ عَمِيَّتٌ، وَآمَنَ عَفْرِيَّتٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَسْرَعَ فِي أَوْبَتِهِ، وَلَا حَرَمْنَا اللَّهُ مِثْلَ تَوْبَتِهِ،
وَجَعَلْنَا بَقِيَّةَ يَوْمِنَا نَعْجَبُ مِنْ نُسْكِهِ، مَعَ مَا كُنَّا نَعْلَمُ مِنْ فَسْقِهِ.

قَالَ: وَلَمَّا حَشَرَ النَّهَارُ أَوْ كَادَ، نَظَرْنَا فَإِذَا بَرَايَاتِ الْحَانَاتِ أَمْثَالُ النُّجُومِ، فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ، فَتَهَادَيْنَا بِهَا
السَّرَّاءَ، وَتَبَاشَرْنَا بِلَيْلَةٍ غَرَاءَ، وَوَصَلْنَا إِلَى أَفْحَمِهَا بَابًا، وَأَضْحَمِهَا كِلَابًا، وَقَدْ جَعَلْنَا الدِّيَابِرَ إِمَامًا،
وَالْإِسْتِهَارَ لِيَزَامًا، فَذَفَعْنَا إِلَى ذَاتِ شَكْلِ وَذَلِّ، وَوَشَّاحِ مُنْحَلِّ، إِذَا قَتَلَتْ أَلْحَاطُهَا، أَحْيَتْ أَلْفَاطُهَا،
فَأَحْسَنَتْ تَلْقِيْنَا، وَأَسْرَعَتْ تَقْبُلَ رُؤُوسِنَا وَأَيْدِينَا، وَأَسْرَعَ مِنْ مَعَهَا مِنَ الْعُلُوجِ، إِلَى حَطِّ الرَّحَالِ
وَالسُّرُوجِ، وَسَأَلْنَاهَا عَنْ خَمْرِهَا، فَقَالَتْ:

خَمْرٌ كَرِيْقِي فِي الْعُدُو ... بَةِ وَاللَّذَاذَةُ وَالْحَلَاوَةُ
تَذُرُ الْحَلِيمَ وَمَا عَلَيْهِ لِحِلْمِهِ أَدْنَى طُلَاوَةُ
كَأَنَّمَا اعْتَصَرَهَا مِنْ خَدِّي، أَجْدَادُ جَدِّي.

وَسَرَبَلُوهَا مِنَ الْقَارِ، بِمِثْلِ هَجْرِي وَصَدِّي، وَدَيْعَةُ الدُّهُورِ، وَخَبِيئَةُ جَيْبِ السُّرُورِ، وَمَا زَالَتْ تَتَوَارَتْهَا
الْأَخْيَارُ، وَيَأْخُذُ مِنْهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْجٌ وَسُعَاعٌ، وَوَهْجٌ لَدَاعٌ، رِيحَانَةُ النَّفْسِ، وَضِرَّةُ
الشَّمْسِ، فَتَاةُ الْبَرَقِ، عَجُوزُ الْمَلَقِ، كَاللَّهَبِ فِي الْعُرُوقِ، وَكَبْرُدُ النَّسِيمِ فِي الْحُلُوقِ، مِصْبَاحُ الْفِكْرِ، وَتَرِيَاقُ
سَمِّ الدَّهْرِ، بِمِثْلِهَا عَزَزَ الْمَيْتُ فَانْتَشَرَ، وَذُووِي الْأَكْمَةِ فَأَبْصَرَ، قُلْنَا: هَذِهِ الصَّائِلَةُ وَأَيْبِكِ، فَمِنْ الْمُطْرَبِ فِي
نَادِيكِ؟.

وَلَعَلَّهَا تُشْعِشِعُ لِلشَّرْبِ، بَرِيكَ العَدْبِ، قَالَتْ: إِنَّ لِي شَيْخًا طَرِيفَ الطَّبْعِ، طَرِيفَ المَجُونِ، مَرَّ يَوْمَ
الأَحَدِ فِي دَوْرِ المِرْبَدِ، فَسَارَتِي حَتَّى سَرَّيْ، فَوَقَعَتِ الخُلْطَةَ، وَتَكَرَّرَتِ العِبْطَةُ، وَذَكَرَ لِي مِنْ وَفُورِ عَرَضِهِ،
وَشَرَفِ قَوْمِهِ فِي أَرْضِهِ، مَا عَطَفَ بِهِ وَدَيِ، وَحَظِي بِهِ عِنْدِي، وَسَيَكُونُ لَكُمْ بِهِ أُسٌّ، وَعَلَيْهِ حِرْصٌ، قَالَ:
وَدَعَتْ بِشَيْخِهَا فَإِذَا هُوَ إِسْكَندَرِينَا أَبُو الفَتْحِ، قَهْلَتْ: يَا أبا الفَتْحِ، وَاللَّهِ كَأَنَّمَا نَظَرَ إِلَيْكَ، وَنَطَقَ عَن لِسَانِكَ
الَّذِي يَقُولُ:

كَانَ لِي فِيمَا مَضَ ... ي عَقْلٌ وَدِينٌ وَاسْتِقَامَةٌ

ثُمَّ قَدْ بَعْنَا بِحَمْدِ ... اللّهِ فِقْهًا بِحِجَامَةٍ

وَلَمَّا عَشْنَا قَلِيلًا ... نَسَأَلُ اللّهِ السَّلَامَةَ

قَالَ: فَتَخَرَّ نَخْرَةَ المَعْجَبِ، وَصَاحَ وَزَمَّهَرَ، وَضَحِكَ حَتَّى قَهَقَهُ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَمْثَلِي يُقَالُ، أَوْ بِمِثْلِي تُضْرَبُ الأَمْثَالُ؟؟

دَعُ مِنَ اللُّومِ وَلَكِنْ ... أَيُّ دَكَكٍ تَرَانِي

أَنَا مَنْ يَعْرِفُهُ كُلُّ ... تَهَامٍ وَيَمَانِي

أَنَا مِنْ كُلِّ غُبَارٍ ... أَنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

سَاعَةَ الأَرْزَمِ مِخْرَابًا، وَأُخْرَى بَيْتِ حَانَ

وَكَذَا يَفْعَلُ مَنْ يَعْنِي ... لُ فِي هَذَا الزَّمَانِ

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَاسْتَعَدَّتْ بِاللّهِ مِنْ مِثْلِ حَالِهِ، وَعَجَّجَتْ لِقُعودِ الرِّزْقِ عَن أَمْثَالِهِشِ، وَطَبْنَا مَعَهُ أُسْبُوعَنَا
ذَلِكَ، وَرَحَلْنَا عَنْهُ.

المَقَامَةُ المَطْلَبِيَّةُ

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

اجْتَمَعَتْ يَوْمًا بِجَمَاعَةٍ كَانَتْهُمْ زَهْرُ الرِّبِيْعِ، أَوْ نُجُومُ اللَّيْلِ بَعْدَ هَزْبِ رِيْعِ، بِوُجُوهِ مُضِيَّةٍ، وَأَخْلَاقِ رَضِيَّةٍ، قَدْ
تَنَاسَبُوا فِي الزَّيِّ وَالْحَالِ، وَتَشَابَهُوا فِي حُسْنِ الأَحْوَالِ، فَأَخَذْنَا نَتَجَادَبُ أَدْيَالَ المَدَاكِرَةِ، وَنَفْتَحُ أَبْوَابَ
المُحَاضِرَةِ، وَفِي وَسَطِنَا شَابٌ قَصِيرٌ مِنْ بَيْنِ الرِّجَالِ، مَحْضُوفُ السَّبَالِ، لَا يَنْبَسُ بِحَرْفٍ، وَلَا يَخُوضُ مَعَنَا فِي
وَصْفٍ، حَتَّى انْتَهَى بِنَا الكَلَامِ إِلَى مَدْحِ العِنْيِ وَأَهْلِهِ، وَذِكْرِ المَالِ وَفَضْلِهِ، وَأَنَّهُ زِينَةُ الرِّجَالِ، وَغَايَةُ الكَمَالِ،
فَكَأَنَّمَا هَبَّ مِنْ رَفْدَةٍ، أَوْ حَضَرَ بَعْدَ غِيَبَةٍ، وَفَتَحَ دِيوَانَهُ، وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ، فَقَالَ: صَهْ لَقَدْ عَجَزْتُمْ عَن شَيْءٍ
عَدِمْتُمُوهُ، وَقَصَرْتُمْ عَن طَلْبِهِ فَهَجَنْتُمُوهُ، وَخُدِعْتُمْ عَن البَاقِيِ بِالقَانِيِ، وَشَغِلْتُمْ عَن النَّائِيِ بِالدَّانِيِ، هَلْ الدُّنْيَا
إِلَّا مَنَاحُ رَاكِبٍ، وَتَعَلَّةُ ذَاهِبٍ؟ وَهَلْ المَالُ إِلَّا عَارِيَةٌ مُرْتَجِعَةٌ، وَوَدِيْعَةٌ مُنْتَزَعَةٌ؟ يُنْقَلُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى آخَرِينَ،
وَتَخْرُجُهُ الأَوَائِلُ لِلآخَرِينَ، هَلْ تَرَوْنَ المَالَ إِلَّا عِنْدَ البُخَلَاءِ، دُونَ الكَرَمَاءِ، وَالجُهَّالِ دُونَ العُلَمَاءِ؟ إِيَّاكُمْ
وَالإِنْخِدَاعَ فَلَيْسَ الفَخْرُ إِلَّا فِي إِحْدَى الجِهَتَيْنِ، وَلَا التَّقَدُّمُ إِلَّا بِإِحْدَى القِسْمَتَيْنِ: إِمَّا نَسَبٌ شَرِيفٌ، أَوْ عِلْمٌ
مُنِيفٌ، وَأَكْرَمُ بِشَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَى الرُّؤُوسِ حَامِلُهُ، وَلَا يَبْسُ مِنْهُ أَمْلُهُ، وَاللّهِ لَوْ لَا صِيَانَةُ النَّفْسِ وَالعَرَضِ،
لَكُنْتُ أَغْنَى أَهْلَ الأَرْضِ، لِأَنِّي أَعْرِفُ مَطْلَبَيْنِ، أَحَدُهُمَا بِأَرْضِ طَرْسُوسَ، تَشْرَهُ فِيهِ التُّفُوسُ، مِنْ ذَخَائِرِ

الْعَمَالِقَةَ، وَحَبَايَا الْبَطَارِقَةِ، فِيهِ مَائَةٌ أَلْفٌ مِثْقَالٌ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَهُوَ مَا بَيْنَ سُورَا وَالْجَامِعَيْنِ، فِيهِ مَا يَعْمُ أَهْلُ
الْقَتْلَيْنِ، مِنْ كُنُوزِ الْأَكَاسِرَةِ، وَعُدَدِ الْجَبَابِرَةِ، أَكْثَرُهُ يَأْقُوتُ أَحْمَرٌ، وَدُرٌّ وَجَوْهَرٌ وَتِيَجَانٌ مُرْصَعَةٌ وَبَدْرٌ
مُجَمَّعَةٌ فَلَمَّا أَنْ سَمِعْنَا ذَلِكَ أَقْبَلْنَا عَلَيْهِ وَمَلْنَا إِلَيْهِ، وَأَخَذْنَا نَسْتَعِجِزُ رَأْيَهُ، فِي الْقَنُوعِ بِيَسِيرِ الْمَكَاسِبِ، مَعَ أَنَّهُ
عَارِفٌ بِهِذِهِ الْمَطَالِبِ، فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَفْرَعُ مِنَ السُّلْطَانِ، وَلَا يَتَّقِي إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْإِخْوَانِ، فَهَلَّلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا
حُجَّتَكَ، وَقَبَلْنَا مَعْدِرَتَكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْنَا، وَتَمَنَّ عَلَيْنَا، وَتَعْرِفَنَا أَحَدَ هَذَيْنِ الْمَطْلَبَيْنِ، عَلَى أَنَّ لَكَ
الثَّلَاثَيْنِ؛ فَعَلْتُ، فَأَمَالَ إِلَيْنَا يَدَهُ، وَقَالَ: مَنْ قَدَّمَ شَيْئًا وَجَدَهُ، وَمَنْ عَرَفَ مَا يُنَالُ، هَانَ عَلَيْهِ بَدْلُ الْمَالِ، فَكُلُّ
مِنَّا حَبَاهُ بِمَا حَضَرَ، وَتَشَوَّقَ إِلَى مَا ذَكَرَ، فَلَمَّا مَلَأْنَا كَفَّهُ، رَفَعَ إِلَيْنَا طَرْفَهُ، وَقَالَ: لَا بُدَّ أَنْ يَقْضِيَ عِلْقًا، وَنَنَالُ
مَا يُمَسِّكُ رَمَقًا، وَقَدْ ضَاقَ وَفْتِنَا، وَالْمَوْعِدُ غَدًا هَاهُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَلَمَّا تَفَرَّقَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ، قَعَدْتُ بَعْدَهُمْ سَاعَةً، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ، وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ،
وَقُلْتُ وَقَدْ رَغِبْتُ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَتَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى مُحَادَثَتِهِ: كَأَنِّي عَارِفٌ بِنَسَبِكَ، وَقَدْ اجْتَمَعْتُ بِكَ! فَقَالَ:
نَعَمْ ضَمَمْنَا طَرِيقُ، وَأَنْتَ لِي رَفِيقٌ، هَلَلْتُ: قَدْ غَيْرَكَ عَلَيَّ الرَّمَانُ، وَمَا أَنْسَانِيكَ إِلَّا الشَّيْطَانُ، فَأَنْشَأُ يَقُولُ:

أَنَا جَبَّارُ الرَّمَانِ ... لِي مِنَ السُّخْفِ مَعَانِي

وَأَنَا الْمُتَفِقُ بَعْدَ ال ... مَالٍ مِنْ كَيْسِ الْأَمَانِي

مَنْ أَرَادَ الْقَصْفَ وَالْعَرَّ ... فَ عَلَى عَرَفِ الْمَثَانِي

وَاصْطَفَى الْمُرْدَانَ جَهْلًا ... مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ

صَارَ مِنْ مَالٍ وَإِقْبَا ... لٍ تَرَاهُ فِي أَمَانٍ

الْمَقَامَةُ الْبَشْرِيَّةُ

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: كَانَ بَشْرُ بْنُ عَوَاثَةَ الْعَبْدِيُّ صَعْلُو كَا. فَأَعَارَ عَلَيَّ رَكْبًا فِيهِمْ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ،
فَتَزَوَّجَ بِهَا، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، فَقَالَتْ:

أَعْجَبَ بَشْرًا حَوْرٌ فِي عَيْنِي ... وَسَاعِدٌ أَيْضُ كَاللَّجِينِ

وَدُونُهُ مَسْرَحُ طَرْفِ الْعَيْنِ ... خَمْصَاةٌ تَرْفُلُ فِي حِجْلَيْنِ

أَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ... لَوْ ضَمَّ بَشْرٌ بَيْنَهَا وَيَنِي

أَدَامَ هَجْرِي وَأَطَالَ بَيْنِي ... وَلَوْ يَقِيسُ زَيْنَهَا بَرْنِي

لَأَسْفَرَ الصُّبْحُ لِدِي عَيْنِي قَالَ بَشْرٌ: وَيَحْكُ مِنْ عَيْتٍ؟ فَقَالَتْ: بِنْتُ عَمِّكَ فَاطِمَةَ، فَقَالَ: أَهِيَ مِنَ الْحُسْنِ
بِحَيْثُ وَصَفْتُ؟ قَالَتْ: وَأَزِيدُ وَأَكْثَرُ، فَأَنْشَأُ يَقُولُ:

وَيَحْكُ يَا ذَاتَ الثَّنَائِيَا الْبِيضِ ... مَا خَلَّتْنِي مِنْكَ بِمُسْتَعِضِ

فَالآنَ إِذْ لَوَحَتْ بِالْتَّعْرِيزِ ... خَلَوَتْ جَوًّا فَاصْفَرِي وَبِيضِي

لَا ضُمَّ جَفْنَايَ عَلَى تَعْمِيضِ ... مَا لَمْ أَشُلْ عَرُضِي مِنَ الْحَضِيضِ

فَقَالَتْ:

كَمْ خَاطِبٍ فِي أَمْرِهَا أَلْحَا ... وَهِيَ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمِّ لَحَا

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عَمِّهِ يَخْطُبُ ابْنَتَهُ، وَمَنْعَهُ الْعَمُّ أَمْنِيَّتَهُ، قَالَ أَلَا يُرْعَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِنْ لَمْ يُزَوِّجْهُ ابْنَتَهُ، ثُمَّ كَثُرَتْ مَضْرَأَتُهُ فِيهِمْ، وَاتَّصَلَتْ مَعْرَأَتُهُ إِلَيْهِمْ؛ فَاجْتَمَعَ رِجَالُ الْحَيِّ إِلَى عَمِّهِ، وَقَالُوا: كَفَّ عَنَّا مَجْثُوتَكَ، فَقَالَ: لَا تَلْبِسُونَنِي عَارًا، وَأَمْهَلُونِي حَتَّى أَهْلِكَ بَعْضَ الْحَيْلِ، فَقَالُوا: أَنْتَ وَذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ عَمُّهُ: إِنِّي آلَيْتُ أَنْ لَا أُزَوِّجَ ابْنَتِي هَذِهِ إِلَّا مِمَّنْ يَسُوقُ إِلَيْهَا أَلْفَ نَاقَةٍ مَهْرًا، وَلَا أَرْضَاهَا إِلَّا مِنْ نُوقِ خُرَاعَةَ، وَعَرَضُ الْعَمِّ كَانَ أَنْ يَسْلُكَ بَشَرُ الطَّرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خُرَاعَةَ فَيَقْتَرِسَهُ الْأَسَدُ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ كَانَتْ تَحَامَتُ عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَكَانَ فِيهِ أَسَدٌ يُسَمَّى دَادًا، وَحَيَّةٌ تُدْعَى شُجَاعًا، يَقُولُ فِيهِمَا قَائِلُهُمْ:

أَفْتُكُ مِنْ دَادٍ وَمِنْ شُجَاعٍ ... إِنْ يَكُ دَادٌ سَيِّدَ السَّبَاعِ

فَإِنَّهَا سَيِّئَةُ الْأَفَاعِي ثُمَّ إِنَّ بَشَرًا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ، فَمَا نَصَفَهُ حَتَّى لَقِيَ الْأَسَدَ، وَقَمَصَ مَهْرَهُ، فَزَلَّ وَعَقَرَهُ، ثُمَّ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ، وَاعْتَرَضَهُ، وَقَطَعَهُ، ثُمَّ كَتَبَ بِدَمِ الْأَسَدِ عَلَى قَمِيصِهِ إِلَى ابْنَةِ عَمِّهِ:

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتَ بَطْنَ حَبْتٍ ... وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُورُ أَخَاكَ بَشَرًا

إِذَا لَرَأَيْتَ لَيْثًا زَارَ لَيْثًا ... هَزْبَرًا أَغْلَبَا لَاقَى هَزْبَرًا

تَبَهَّنَسَ إِذْ تَقَاعَسَ عَنْهُ مُهْرِي ... مُحَادَرَةً، قَهَلْتُ: عُفِرْتُ مَهْرًا

أَنْلُ قَدَمِي ظَهَرَ الْأَرْضِ؛ إِنِّي ... رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَنْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا

وَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبَدَى نَصَالًا ... مُحَدَّدَةً وَوَجْهًا مُكْفَهْرًا

يُكْفِكِفُ غَيْلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ ... وَيَبْسُطُ لِلنُّوْبِ عَلَى أُخْرَى

يُدِلُّ بِمِخْلَبٍ وَيَحْدُ نَابٍ ... وَبِاللَّحْظَاتِ تَحْسِبُهُنَّ جَمْرًا

وَفِي بُمْنَايَ مَاضِي الْحَدِّ أَبْقَى ... بِمَضْرِبِهِ قِرَاعُ الْمَوْتِ أَثْرًا

أَلَمْ يَلْغُكْ مَا فَعَلْتَ ظُبَاهُ ... بِكَاطِمَةِ غَدَاةٍ لَقِيْتَ عَمْرًا

وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى ... مُصَاوَلَةَ فَكَيْفَ يَخَافُ ذَعْرًا؟

وَأَنْتَ تَرُومُ لِلْأَشْبَالِ قُوْتًا ... وَأَطْلُبُ لِابْنَةِ الْأَعْمَامِ مَهْرًا

فَقِيْمِمْ تَسُوْمٌ مِثْلِي أَنْ يُوَلِّي ... وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قَسْرًا؟

نَصَحْتُكَ فَالْتَمَسْ يَا لَيْتُ غَيْرِي ... طَعَامًا؛ إِنْ لَحْمِي كَانَ مُرًّا

فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّ الْعِشَّ نَصَحِي ... وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرًا

مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسَدَيْنِ رَامَا ... مَرَامًا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعَرَا

هَزَزْتُ لَهُ الْحُسَامَ فَخَلَّتْ أَنِّي ... سَلَلْتُ بِهِ لَدَى الظُّلْمَاءِ فَجْرًا

وَجَدْتُ لَهُ بِجَانِشَةِ أَرْتَهُ ... بِأَنْ كَذَبْتَهُ مَا مَنَّتَهُ غَدْرًا

وَأَطْلَقْتُ الْمَهْنَدَ مِنْ يَمِينِي ... فَقَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرًا

فَخَرَّ مُجَدَّلًا بِدَمٍ كَأَنِّي ... هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءَ مُشْمَخْرَا

وَقُلْتُ لَهُ: يَعِزُّ عَلَيَّ أَنِّي ... قَتَلْتُ مُنَاسِبِي جَلْدًا وَفَخْرًا؟

وَلَكِنْ رُمْتُ شَيْئًا لَمْ يَرْمُهُ ... سِوَاكَ، فَلَمْ أَطِقْ يَا لَيْتُ صَبْرًا

تُحَاوِلُ أَنْ تُعَلِّمَنِي فِرَارًا! ... لَعَمْرُ أَيْكَ قَدْ حَاوَلْتَ نُكْرًا!
فَلَا تَجْزَعْ، فَقَدْ لَاقَيْتَ حُرًّا ... يُحَاذِرُ أَنْ يُعَابَ؛ فَمَتَّ حُرًّا
فَإِنْ تَكُ قَدْ قُتِلْتَ فَلَيْسَ عَارًا ... فَقَدْ لَاقَيْتَ ذَا طَرَفَيْنِ حُرًّا
فَلَمَّا بَلَغَتِ الْأَيَّاتُ عَمَّهُ نَدِمَ عَلَى مَا مَنَعَهُ تَرْوِيحَهَا، وَخَشِيَ أَنْ تَغْتَالَهُ الْحَيَّةُ، فَقَامَ فِي أَثَرِهِ، وَبَلَغَهُ وَقَدْ مَلَكَتَهُ
سَوْرَةُ الْحَيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى عَمَّهُ أَخَذَتْهُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَعَلَ يَدُهُ فِي فَمِ الْحَيَّةِ وَحَكَّمَ سَيْفَهُ فِيهَا، فَقَالَ:
بِشْرٌ إِلَى الْمَجْدِ بَعِيدٍ هُمُهُ ... لَمَّا رَأَاهُ بِالْعِرَاءِ عَمَّهُ
قَدْ تَكَلَّفَتْهُ نَفْسُهُ وَأُمُّهُ ... جَاشَتْ بِهِ جَانِثَةٌ تَهْمُهُ
قَامَ إِلَى ابْنِ لِفْلَا يَوْمُهُ ... فَغَابَ فِيهِ يَدُهُ وَكُمُهُ
وَنَفْسُهُ نَفْسِي وَسَمِّي سَمُّهُ

فَلَمَّا قَتَلَ الْحَيَّةَ قَالَ عَمُّهُ: ابْنِي عَرَضْتُكَ طَمَعًا فِي أَمْرٍ قَدْ نَتَى اللَّهُ عِنَانِي عَنْهُ، فَارْجِعْ لِأَزْوَاجِكَ ابْنَتِي، فَلَمَّا رَجَعَ
جَعَلَ بِشْرٌ يَمْلَأُ فَمَهُ فَخْرًا، حَتَّى طَلَعَ أَمْرُدُ كَشِقِّ الْقَمَرِ عَلَى فَرْسِهِ مُدَجِّجًا فِي سِلَاحِهِ، فَقَالَ بِشْرٌ: يَا عَمُّ ابْنِي
أَسْمِعْ حَسَّ صَيْدِي، وَخَرَجَ فَإِذَا بَغْلَامٌ عَلَى قَيْدٍ، فَقَالَ: تَكَلِّتِكَ أُمُّكَ يَا بِشْرُ! أَنْ قَتَلْتَ دُودَةً وَبَهِيمَةً تَمَلُّ
مَاضِعِيكَ فَخْرًا؟ أَنْتَ فِي أَمَانٍ إِنْ سَلَّمْتَ عَمَّكَ فَقَالَ بِشْرٌ مَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ قَالَ الْيَوْمُ الْأَسْوَدُ وَالْمَوْتُ
الْأَحْمَرُ، فَقَالَ بِشْرٌ: تَكَلِّتِكَ مَنْ سَلَحْتِكَ، فَقَالَ: يَا بِشْرُ وَمَنْ سَلَحْتِكَ، وَكَرَّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ،
فَلَمْ يَتِمَّكَنْ بِشْرٌ مِنْهُ، وَأَمَّكَنَ الْغُلَامُ عَشْرُونَ طَعْنَةً فِي كَلْبِيَّةِ بِشْرٍ، كُلَّمَا مَسَّهُ شَيْبَا السَّنَانِ حَمَاهُ عَنْ بَدَنِهِ إِبْقَاءً
عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا بِشْرُ كَيْفَ تَرَى؟ أَلَيْسَ لَوْ أَرَدْتُ لِأَطْعَمْتُكَ أَثْيَابَ الرُّمْحِ؟ ثُمَّ أَلْقَى رُمْحَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ
فَضْرَبَ بِشْرًا عِشْرِينَ ضَرْبَةً بِعَرَضِ السَّيْفِ، وَلَمْ يَتِمَّكَنْ بِشْرٌ مِنْ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا بِشْرُ سَلِّمْ عَمَّكَ
وَأَذْهَبْ فِي أَمَانٍ، قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنْ بِشْرِيَّةٌ أَنْ تَقُولَ مَنْ أَنْتَ، فَقَالَ: أَنَا ابْنُكَ، فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ مَا
قَارَأْتُ عَقِيلَةً قَطُّ فَاتَى لِي هَذِهِ الْمُنْحَةُ؟؟ فَقَالَ: أَنَا ابْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي دَلَّتْكَ عَلَى ابْنَةِ عَمَّكَ، فَقَالَ بِشْرٌ:
تِلْكَ الْعَصَا مِنْ هَذِهِ الْعُصِيَّةِ ... هَلْ تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا الْحَيَّةَ!
وَحَلَفَ لَا رِكَبَ حِصَانًا، وَلَا تَرْوَجَ حِصَانًا. ثُمَّ زَوَّجَ ابْنَةَ عَمِّهِ لِابْنِهِ.

والله سبحانه وتعالى أعلى واعلم، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه
وسلم.

وهذا آخر ما تيسر لنا من التعليق على مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني، والله المسئول أن يجعله
عملاً مقبولاً، وأن يحسن جزاءنا عليه، إنه وحده الذي عنده الجراء، والحمد لله رب العالمين، وسلام على
المرسلين ولا عدوان إلا على الظالمين.